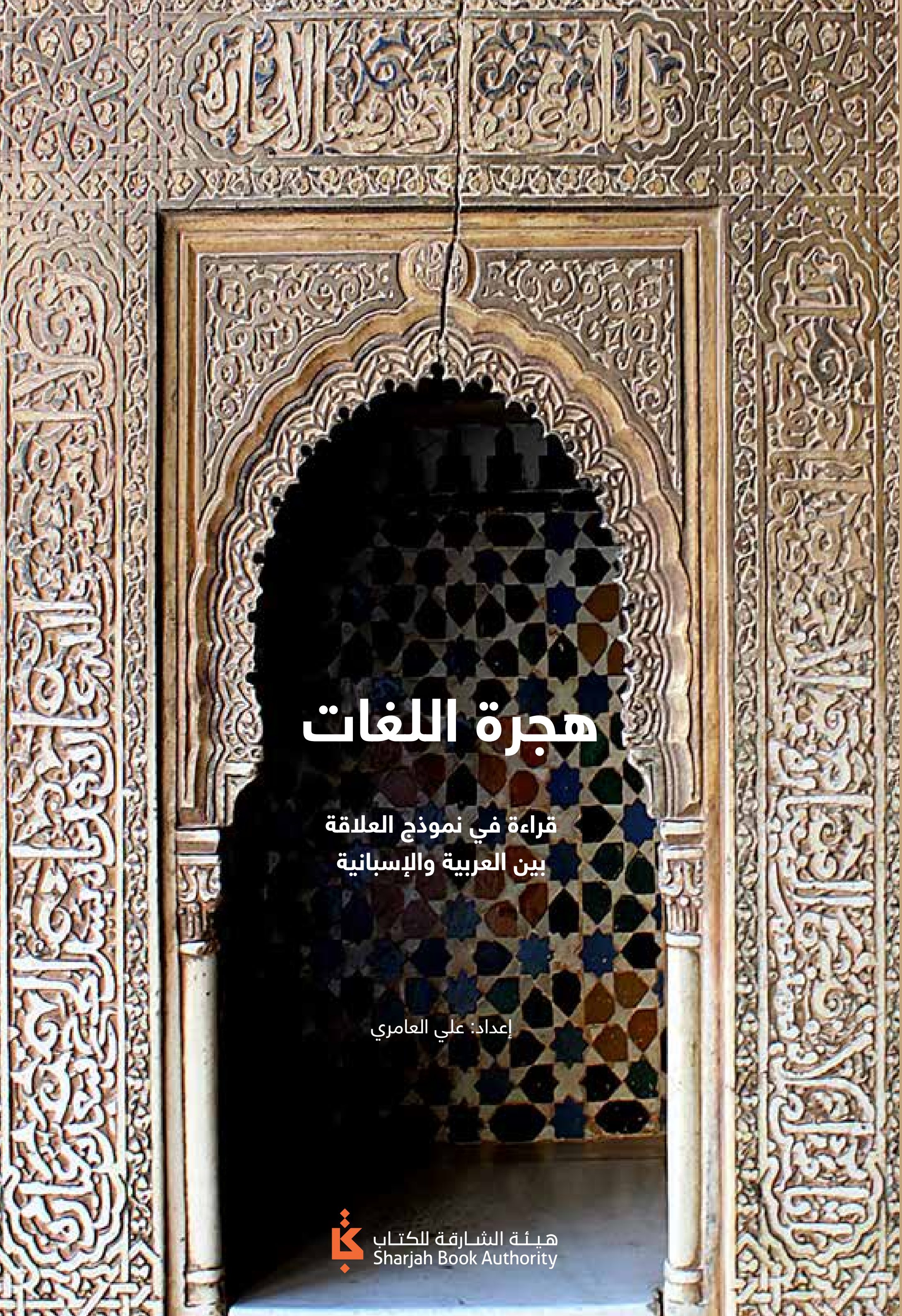

هجرة اللغات

قراءة في نموذج العلاقة بين العربية والإسبانية

إعداد: علي العامري

هيئة الشارقة للكتاب
Sharjah Book Authority

هجرة اللغات
هيئة الشارقة للكتاب • 2024

هجرة اللغات

تشكّل المعالم الأندلسية قصيدة حجرية تشعّ جمالاً لا ينضب، وتوقظ السِّحر في الرسائل المتبادلة بين الظلّ والنّور. وإذا كانت قصور الأندلس معجزة معمارية، وهي كذلك، فإنّ اللغة العربية قصر القصور ومعمار القصيدة في المدوّنة الأندلسية التي تجمع بهاء المبنى ببهاء المعنى. وفي هجرة لغة الضاد إلى اللغة الإسبانية سيرة من تِبرٍ وأصوات، تروي ما تبوح به نقوش الحكمة والموشّحات وقصائد الحب والتآخي، إذ لا يزال الجلّنار الحجريّ يتفتح في كتاب الأندلس، ولا يزال زهر اللوز، في حكاية المعتمد واعتماد، يتفتّح أيضاً، كما تتفتّح الكلمات العربية في لغة ثربانتيس، منذ 13 قرناً.

ترتحل اللغات مثل الكائنات، تتداخل أصواتها، تتجاور ظلالها، تتعاشقُ معانيها، تتراسلُ مبانيها، وتسري مثل عروق الفضّة والذهب في التضاريس. وقد كان للغة العربية هذا المسرى، إذ يقول باحثون إنّ أربعة آلاف كلمة في القاموس الإسباني هي من أصل عربي، بينما يرى آخرون صعوبة إحصاء كلّ الكلمات العربية التي أصبحت جزءاً من اللغة الإسبانية، ويشيرون إلى أكثر من هذا العدد المسجّل، إذا ما تم تتبّع المفردات الناتجة عن الاشتقاق والتّوليد، فضلاً عن الكلمات المتخفّيّة التي صاغتها اللغة القشتالية وفق قانونها الداخلي، فلا تكاد تبينُ أرومتُها العربيةُ سوى لحاذقٍ يمكن وصفه بأنه "قصّاص أثر اللغات".

• علي العامري

هيئة الشارقة للكتاب
Sharjah Book Authority

هجرة اللغات

قراءة في نموذج العلاقة بين العربية والإسبانية

هجرة اللغات

قراءة في نموذج العلاقة بين العربية والإسبانية

إعداد: علي العامري

الندوة الدولية الثالثة لمجلة "الناشر الأسبوعي"
معرض الشارقة الدولي للكتاب 2024
هيئة الشارقة للكتاب

إصدارات: هيئة الشارقة للكتاب - حكومة الشارقة

هاتف: 0097165140000

برّاق: 0097165140111

البريد الإلكتروني: info@sibf.com

صندوق بريد: 73111 - الشارقة - دولة الإمارات العربية المتحدة

عنوان الكتاب: هجرة اللغات - قراءة في نموذج العلاقة بين العربية والإسبانية

تأليف جماعي

إعداد: علي العامري

الطبعة الأولى 2024

جميع الحقوق محفوظة ©

الغلاف: "إحدى طاقات قاعة البركة في قصر الحمراء بمدينة غرناطة. (أرشيفية)".

الفهرس

- السّرديّات المهاجرة 09

-المدوّنة الأندلسية.. بهاء المبنى والمعنى 11

- هجرة الألفاظ العربية إلى اللغة الإسبانية........ 15

- هجرة اللغات.. العربية والإسبانية نموذجاً........ 35

- اللسان المهاجر.. برج بابل اللغات........ 65

- المهجر الأميركي ورحلة اللغات 79

- العربية في لغة ثربانتس........ 93

- هجرة اللغات والتمثّلات الحضارية 115

- الدراسات العربيّة والمخطوطات في إسبانيا........ 127

المشاركون في الكتاب

- الدكتور إغناثيو فيراندو (إسبانيا)
- الدكتور وليد صالح الخليفة (العراق/ إسبانيا)
- الدكتور صلاح بوسريف (المغرب)
- الدكتور إغناثيو غوتيريث دي تيران (إسبانيا)
- الدكتور محسن الرملي (العراق/ إسبانيا)
- هدى الهرمي (تونس)
- الدكتور إغناثيو سانشيز (إسبانيا)

السّرديّات المهاجرة

تتعدّد أسبابُ الهجراتِ التي تُعدُّ إحدى الظواهر المُرافقة لمسيرة البشريّة، لكنّها في كلّ الأحوال تشكّل عاملاً أساسياً في تعزيز التواصل مع "الآخر" وتجديد عناصر التنوع والتفاعل الثقافي على هذه الأرض.

يُهاجر الناسُ، جماعاتٍ وأفراداً، حاملين معهم أحلامَهم وذكرياتهم ومخيّلاتهم ولغاتهم وحصيلة خبراتهم وثقافاتهم وعاداتهم وتقاليدهم وحكاياتهم الشفهية التي نشأوا عليها واكتسبوها في مواطنهم الأصلية الأولى. يهاجرون من بلد إلى بلد، ومن قارة إلى قارة، ومعهم تُهاجر سرديّاتهم. وهكذا تفعل اللغات أيضاً، فهي تهاجر من جغرافيا إلى أُخرى جديدة ومختلفة، من أرض "الذات" إلى أرض "الآخر".

ولذلك اختارت هيئة الشارقة للكتاب "هجرة اللغات" عنواناً للندوة الدّولية الثالثة التي تنظمها ضمن فعاليات الدورة الـ 43 من معرض الشارقة الدوليّ للكتاب، على مدار يومين، إذ يقدّم الكتّاب والباحثون السبعة المشاركون فيها أوراقهم البحثية، لتتبّع هذه الظاهرة اللغوية، وقراءة خريطة العلاقة المتجذّرة بين اللغتين العربية والإسبانية، بوصفها أنموذجاً لدراسة الهجرة اللغوية والتفاعل الثقافي وعلامات التأثر والتأثير.

تأتي الندوة الدولية لمجلة "الناشر الأسبوعي" لتسلّط الضوء على هجرة اللغات وتأثيراتها في حياة المجتمعات وثقافاتها وعلاقاتها البينيّة، ضمن برنامج معرض الشارقة للكتاب الذي يواصل إشراقه في إطار مشروع الشارقة الثقافيّ التنويريّ الذي يرعاه ويدعمه الحاكم الحكيم، صاحب

السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى، حاكم الشارقة، منذ خمسة عقود. وتتناغم هذه الندوة مع مشروع الأمّة العربية الجديد الذي أطلقه سموه عبر مبادرة إنشاء شبكة المعهد الثقافي العربي في كبرى المدن والعواصم الثقافية في مختلف القارات، والتي تمثّل صوت الثقافة العربية وصورتها خارج حدود الوطن العربي، من خلال الذهاب إلى أرض "الآخر".

وتأتي الندوة الدولية التي ترصد الأثر اللغوي العربي في "لغة ثربانتيس" منذ بدايات الحضارة الأندلسية، تجسيداً لتوجيهات الشيخة بدور بنت سلطان القاسمي رئيسة مجلس إدارة هيئة الشارقة للكتاب، التي تؤكد وتعمل دائماً على بناء جسور الشراكة الثقافية، وتحرص على تجديد الطاقة الخلّاقة للحوار بين الثقافات، وقراءة الدّرس الأندلسي من جديد، وفي مختلف الحقول التاريخية والأدبية والفكرية والعلمية والفنية والروحية، لاستكشاف مزيد من القواسم المشتركة بين الثقافتين العربية والإسبانية، في الماضي والحاضر والمستقبل.

أحمد بن ركاض العامري

الرئيس التنفيذي لهيئة الشارقة للكتاب

رئيس تحرير مجلة "الناشر الأسبوعي"

المدوّنة الأندلسية..
بهاء المبنى والمعنى

تشكّل المعالم الأندلسية قصيدة حجرية تشعّ جمالاً لا ينضب، وتوقظ السِّحر في الرسائل المتبادلة بين الظلّ والنّور. وإذا كانت قصور الأندلس معجزة معمارية، وهي كذلك، فإنّ اللغة العربية قصر القصور ومعمار القصيدة في المدوّنة الأندلسية التي تجمع بهاء المبنى ببهاء المعنى. وفي هجرة لغة الضاد إلى اللغة الإسبانية سيرة من تِبرٍ وأصوات، تروي ما تبوح به نقوش الحكمة والموشّحات وقصائد الحب والتآخي، إذ لا يزال الجلّنار الحجريّ يتفتح في كتاب الأندلس، ولا يزال زهر اللوز، في حكاية المعتمد واعتماد، يتفتّح أيضاً، كما تتفتّح الكلمات العربية في لغة ثربانتيس، منذ 13 قرناً.

ترتحل اللغات مثل الكائنات، تتداخل أصواتها، تتجاور ظلالها، تتعاشقُ معانيها، تتراسلُ مبانيها، وتسري مثل عروق الفضّة والذهب في التضاريس. وقد كان للغة العربية هذا المسرى، إذ يقول باحثون إنّ أربعة آلاف كلمة في القاموس الإسباني هي من أصل عربي، بينما يرى آخرون صعوبة إحصاء كلّ الكلمات العربية التي أصبحت جزءاً من اللغة الإسبانية، ويشيرون إلى أكثر من هذا العدد المسجّل، إذا ما تم تتبّع المفردات الناتجة عن الاشتقاق والتّوليد، فضلاً عن الكلمات المتخفّية التي صاغتها اللغة القشتالية وفق قانونها الداخلي، فلا تكاد تبينُ أرومتُها العربيةُ سوى لحاذقٍ يمكن وصفه بأنه "قصّاص أثر اللغات".

تأتي الندوة الدولية الثالثة لمجلة "الناشر الأسبوعي" التي تنظمها هيئة

الشارقة للكتاب بعنوان "هجرة اللغات.. قراءة في نموذج العلاقة بين العربية والإسبانية"، ضمن فعاليات معرض الشارقة الدولي للكتاب 2024، لتستكشف مسارات العلاقة التاريخية بين اللغتين العربية والإسبانية، بما تنطوي عليه من حوار ثقافي وحضاري بدأ منذ اللحظة الأندلسية الأولى. ويتناول في هذه الندوة سبعة كتّاب وباحثين من عرب ومستعربين، علامات التبادل اللغوي، والتأثير والتأثر، وفضاءات العلاقة اللغوية بين الثقافتين، وظاهرة الهجرة الصوتية بين الأبجديتين.

ويتتبّع أستاذ كرسي اللغة العربية وآدابها والترجمة في جامعة قادس في إسبانيا، الدكتور إغناثيو فيراندو، في ورقته البحثية رحلة اللغة العربية إلى الأراضي الإسبانية، بدءاً من القرن الثامن الميلادي، حتى صارت "اللغة الرسمية ولغة التواصل الأولى والمفضّلة في جميع نواحي الأندلس"، قائلاً إنّ "اللغة العربية وصلت إلى الأندلس وأحدثت ثورة ثقافية تغيّرَ بفضلها المشهدُ الثقافيُّ في الجزيرة الإيبيرية، فغني عن القول إن لهذه اللغة آثاراً وبصماتٍ واضحةً لا تمحى على شتى المستويات"، مشيراً إلى وصف العالِم فيديريكو كورينتي لسرعة انتشار العربية في شبه جزيرة إيبيريا بأنه "معجزة لغوية".

أما أستاذ الدراسات العربية الإسلامية في جامعة أوتونوما في مدريد، الدكتور وليد صالح الخليفة، فيشير إلى ارتحال كثير من المفردات العربية إلى لغة ثربانتيس، "إلى الحدّ الذي يجعلنا نرى أنّ الكلمة المستعارة من العربية تكاد تكون وحيدة لا مرادف لها في الإسبانية". ويقول "على الرغم من أن محاكم التفتيش قد دمرت الكثير من آثار الموريسكيين الأدبية، فما زالت محفوظة إلى يومنا هذا أكثر من مئتي مخطوطة".

ويرى الشاعر والناقد والباحث الدكتور صلاح بوسريف أن اللّغة المكتفية بذاتها، تُسيِّج نفسها، "لذلك، فهي تموتُ، أو تضيقُ وتختنِقُ، ويتلاشى فيها الإضافة والإبداع"، قائلاً "إذا ذهبْنا إلى اللغة الإسبانية، سواء في ما هو منطوق، وكلام دارج في هذا اللّسان أو اللّغة، أو ما هو مكتوب، ومُتداوَل.

فالعربيّة، حاضرة في هذا اللّسان، تطفو عليه، لأسباب تاريخيّة وجغرافيّة، أو سياسية وثقافية".

ويتناول رئيس قسم الدراسات العربية والإسلامية في جامعة أوتونوما الإسبانية، الدكتور إغناثيو غوتيريث دي تيران، أثر الأدب العربي في المهجريْن الأميركيين الشمالي والجنوبي، من خلال التعامل اللغوي لدى الشاعرين اللبناني البرازيلي إلياس حبيب فرحات، والفلسطيني التشيلي محفوظ مصيص. ويصفُ حركةَ الأدب المهجريّ بأنها "تمثّل في جوهرها مدّاً حضارياً يتجلّى فيه الواقع الاجتماعي والثقافي لمجموعة متميزة من المبدعين العرب. كما أن هذه الحركة قد أَثْرتْ الأدب العربي المعاصر إثراء لا يمكن نكرانه".

ويتقصّى الأستاذ في جامعة سانت لويس الأميركية في مدريد، الدكتور محسن الرملي في ورقته البحثية أثر لغة الضاد في "دون كيخوت"، قائلاً "على الرغم من معرفة وإعجاب ثربانتيس بثقافات أخرى كالإيطالية والبرتغالية مثلاً، إلّا أن الثقافة العربية الإسلامية تأتي بالمقام الثاني بعد الإسبانية، من حيث حصتها في الكيخوته شكلاً ومضموناً". ويشير إلى أن وجود 37 شخصية ذات خلفية ثقافية عربية إسلامية، في "دون كيخوت"، فضلاً عن 22 عبارة من الأمثال والحِكَم العربية، وأكثر من 220 كلمة من أصل عربي، و58 اسم عَلَم من تاريخ وجغرافية العالم العربي والإسلامي.

وتعرض الكاتبة والباحثة في الدراسات الأدبية، هدى الهرمي، في ورقتها البحثية الخطوط العريضة لهجرة اللغات و"الانعكاس المتواري خلف تأثير لغة الضّاد في الثقافة الإسبانية، ونسيج الروابط بين الشرق والغرب"، قائلة إنّ "التاريخ زاخرٌ بنماذج متعدّدة عن الامتزاج بين المهاجرين والمجتمعات بفعل اللغة وقدرتها على نقل الخبرات وتبادل الأفكار وأنماط السلوك والموروث الثقافي". وتضيف أن "تحرّكات البشر في العالم هي أكبر صانع للحضارة أو بالأحرى محرّك الحضارة، فاللغة والمعرفة غير قابلتين

للفصل".

في حين يضيء الباحث في مدرسة طليطلة للمترجمين التابعة لجامعة كاستيا لا مانشا الإسبانية، الدكتور إغناثيو سانشيز، من خلال ورقته البحثية على دور أحد تلامذة الراهب ميغيل كاسيري، وهو باتريثيو دي لا تورّي، قائلاً إنه يحتل "مكانة متميزة، إذ ساهم بشكل كبير في تطوير الدراسات العربيّة وكان له تأثير كبير في مجالي علم المعجم وعلم اللهجات". ويضيف "كان لدراسات علم اللهجات التي قام بها باتريثيو دي لا تورّي في المدن المغربية تأثير مباشر في تحرير معجم بدرو القلعاويّ الذي تمّت باستخدام الأبجديّة العربيّة، وتقديم نطقها على أساس اللغة المحكيّة، وتوسيع الأصوات لموجودة بأصوات جديدة".

علي العامري

مدير تحرير مجلة "الناشر الأسبوعي"

منسّق الندوة الدوليّة

هجرة الألفاظ العربية إلى اللغة الإسبانية

الدكتور إغناثيو فيراندو

تُعدّ اللغاتُ البشريةُ كائناتٍ حيةً على حدّ قول العديد من الخبراء في العلوم الإنسانية. فمن العادي في باب تصنيف اللغات أن تنقسم إلى اللغات الميّتة التي انقرضت، وقسم اللغات الحيّة التي لا تزال على قيد الحياة. ولا غرو في ذلك، إذ إنّ اللغاتِ، شأنُها في ذلك شأنُ سائر الكائنات الحية، تولد وتنمو وتموت. كما أنها تتميز بالكثير من المميزات الخاصة بالكائنات البشرية، فلها القدرة على التواصل والاحتكاك مع اللغات الأخرى والتأثير عليها من خلال تزويدها بألفاظٍ وعباراتٍ وتراكيبَ جديدةٍ، والتأثّر بها عبر اقتراض الألفاظ والعبارات والتراكيب منها عند الرغبة في ذلك أو الضرورة.

وبما أن اللغاتِ كائناتٌ حيةٌ، فلها ميزةٌ أخرى تكتسي قدراً بالغاً من الأهمية، وهي ميزة الانتقال من مكان إلى مكان آخر. فهناك العديد من اللغات التي نشأت في بيئة جغرافية معينة، وانتقلت فيما بعد إلى بيئاتٍ وأماكنَ أخرى بعيدة عن موطنها الأصلي. فلْنأخذ، على سبيل المثال، اللغة الإسبانية التي نشأت في قلب الأراضي الإسبانية منبثقةً عن اللاتينية، وشيئاً فشيئاً انتشرت في كامل الأراضي الإسبانية حتى أصبحت تحتلّ منصبَ اللغة السائدة في إسبانيا ثم رحلت إلى القارة الأميركية، حيث شهدت تطوراً وازدهاراً لا مثيل لهما في نواحي أميركا الجنوبية والوسطى والشمالية، بما فيها الولايات المتحدة، إضافة إلى بعض الأماكن النائية الأخرى في القارة الآسيوية مثل الفلبين وفي القارة الإفريقية مثل جنوب المغرب وغينيا الاستوائية. وإذا نظرنا إلى اللغة الإنجليزية، فلا أحدَ ينكر أنها وصلت إلى غالبية نواحي المعمورة، وتمكنت من اتخاذ موقف مهيمن في شتى المجالات المعرفية.

غير أن هناك فرقاً مهمّاً بين هجرة الناس وبين هجرة اللغات، وهو أن الناس، حينما يرحلون إلى مكان آخر، لا يستطيعون البقاء في الموطن الأصلي، في حين أن اللغاتِ قادرةٌ على الانتقال إلى مكانٍ آخرَ، والانتشار في نواحٍ أخرى، وبنفس الوقت قادرة على البقاء والاستمرار في الموطن الأصلي الذي نشأت فيه. بطبيعة الحال، وهذا أمر بديهي، هذه اللغات المسافرة تتطور وتتغير بمرور الزمن، وقد تبتعد وتختلف عن اللغة في لباسها الأصلي إلى درجة لا تسمح بالتفاهم بين الناطق بهذه اللغة في الموطن الأصلي والناطق بنفس اللغة، في شكلها المتطور والمتغير، في الوجهة التي هاجرت إليها. فهذا ما يمكن ملاحظتُهُ في اللغات الإسكيمو أليوتيّة التي تفرّعت إلى لهجاتٍ مختلفة لا يسهل التفاهمُ بينها، وحتى اللغة العربية التي انقسمت إلى لهجات عدة محكيّة في مناطقَ جغرافيةٍ متباعدةٍ، ونتيجةً لذلك أصبح من الصعب على الكويتي، الذي يعيش في أقصى الشرق من الوطن العربي ويتحدث بعربية خليجية، التواصل مع المغربي الذي يعيش في أقصى الغرب من الوطن العربي ويتحدث بعربية مغربية.

ونظراً إلى أن المادة الأساسية التي تتكون منها اللغات هي الألفاظ، وأن دراسةَ الألفاظِ وأصلِها وتأريخِها وتطورِها ومتابعة هجرتِها عبر مختلف اللغات موضوعٌ أثار انتباهَ العلماء ولا سيما منهم المتخصصين في اللسانيات، فإننا سنركز الانتباه في هذه الورقة البحثية على عرض واستقراء عددٍ من الألفاظ العربية التي هاجرت إلى اللغة الإسبانية بطرق مختلفة، مع إيلاء اهتمام خاص ببعض الصفات التي قلما دُرست وحُللت كونَها بمثابة الأخت الصغيرة للأسماء.

رحلة اللغة العربية

لا بدّ، قبل التعمّق في دراسة الصفات العربية التي تمكنت من دخول اللغة الإسبانية، من إلقاء نظرة، ولو وجيزة، على رحلة اللغة العربية إلى الأراضي الإسبانية، أو إلى الأندلس. القصة معروفة: ابتداء من أوائل القرن الميلادي الثامن وصل إلى إسبانيا، بأفواجٍ مختلفةٍ، عددٌ من الناطقين بالعربية تمكنوا من نشر اللغة العربية، وجعلها اللغة الرسمية ولغة التواصل الأولى والمفضّلة في جميع نواحي الأندلس. ولا يفوتنا في هذا المقام أن نقتبس كلماتٍ قالها في هذا الموضوع بالذات الأستاذ الجليل المرحوم فيديريكو كورينتي الذي يُعد أشهر العلماء الباحثين في شؤون لغة أهل الأندلس، بفضل مكانته العلمية التي لا مثيل لها وإسهاماته القيّمة لمعرفة لغة أهل الأندلس، وما أُطلق عليه اسمَ الشعر الدوري الأندلسي (الموشّحات والأزجال الأندلسية). فقد أشار الأستاذ كورينتي في بعض مؤلفاته إلى السرعة العجيبة التي تمكنت بها العربية من تولي منصب اللغة السائدة والمسيطرة على المشهد الثقافي والدوائر الرسمية في أراضي الجزيرة الإيبيرية بدلاً من اللغة اللاتينية، فيما سمّاه بأشبهِ ما يكون بما سمّاه «معجزة لغوية»، ففي مدة زمنية قصيرة نسبياً (أقل من قرنين)، أصبحت العربية اللغة الرسمية السائدة في كل مجالات الثقافة والإدارة، وأقبل معظم أهل الجزيرة الإيبيرية على تعلّمها ونشرها على أوسعِ نطاق؛ ويعود ذلك إلى كون العربية لغةً ثقافيةً متميزةً تواكب التقدّمَ الفني والعلمي، مقارنةً بضعف اللغة اللاتينية عند أهل الجزيرة الإيبيرية حينذاك، وتراجع الثقافة الإسبانية وحتى انحطاطها.[1]

وبما أن اللغة العربية وصلت إلى الأندلس وأحدثت ثورة ثقافية تغيّرَ بفضلها المشهدُ الثقافيُّ في الجزيرة الإيبيرية، فغني عن القول إن لهذه اللغة آثاراً وبصماتٍ واضحةً لا تمحى على شتى المستويات، إذ إن أراضي الأندلس شهدت تعايشاً واحتكاكاً لغوياً بين العربية والإسبانية القديمة المنبثقة من اللاتينية على مستوى الثقافة العليا في المقام الأول، من خلال العدد الكبير من المصطلحات والمفاهيم التي أتت بها العربية والتي استوعبتها اللغة الإسبانية الفتيّة، وانتقلت فيما بعد إلى اللغات الأوروبية الأخرى،

(1) انظر البحثين اللذين ألفهما في هذا الموضوع: (كورينتي 2001)، ص. 3-18، وكذلك (Corriente 2004) ص. 185-206.

بما يعني ذلك من إغناء الحضارة الأوروبية التي شهدت ابتداء من القرن الخامس عشر نهضة ثقافية متميزة. فمن الجدير بالذكر أن العلماء والأدباء الأندلسيين المرموقين الذين يُشار إليهم بالبنان كتبوا مجموعةً كبيرةً من المؤلفات التي ساهمت في إثراء المشهد الثقافي، وانتقل بعضها من خلال الترجمة إلى الثقافة الإسبانية والأوروبية. طويلة هي قائمة الأسماء اللامعة للمؤلفين الأندلسيين في مختلف المجالات، على غرار الشعراء مثل ابن زيدون وابن دراج القسطلي وابن زمرك وابن خاتمة، والمفكرين والفلاسفة مثل ابن باجة وابن حزم وابن رشد وابن طفيل وابن عربي، والمؤرخين مثل ابن الأبّار وابن سعيد المغربي وابن بسّام وابن حيّان وابن الخطيب وغيرهم كثير. لا داعي في هذا المقام إلى التأكيد على ذلك، فالقصة معروفة، ولا شك أن روحَ اللغة العربية ازدهرت في الأندلس خلال العصر العربي الإسلامي أيّما ازدهار.

طرق دخول الألفاظ

عودة إلى الموضوع الرئيس لهذه الورقة البحثية، ينبغي لنا أن نذكر على سبيل الاختصار طريقة دخول الألفاظ العربية إلى اللغة الإسبانية. نظراً إلى التواصل والاحتكاك اللذين شهدتهما أراضي الأندلس خلال مدة زمنية طويلة بين الشعوب التي كانت تسكن الجزيرة قبل وصول العرب المسلمين وبين الشعوب المتوافدة إليها، فإن الطريقة المفضّلة لدخول الكلمات العربية إلى اللغة الإسبانية هي الطريقة الأندلسية المباشرة. فمن المؤكد تاريخياً أن الرقيّ الحضاريّ والازدهار الثقافيّ اللذين وصلت إليهما الأندلس جعلا المسيحيين الإسبان يقترضون الكثير من الألفاظ العربية في مجال المعرفة والعلم، وذلك عن طريق المستعرَبين[2] الذين هاجروا إلى

(2) يطلق في الدراسات التاريخية اسم «المستعربين» (باللغة الإسبانية mozárabes) بفتح الراء على المسيحيين الذين بقوا تحت السلطة العربية الإسلامية في الأندلس وتعربوا واندمجوا في تيار الثقافة العربية.

ممالك النصارى في الشمال، وكذلك عن طريق المسلمين الباقين في الأراضي الأندلسية بعد تقدم الجيوش المسيحية فيما سُمي «حروب الاسترداد» التي بلغت في مرحلتها الأخيرة مدينة غرناطة، آخر معقل للعرب المسلمين في الأندلس. ومن المهم أن نشير هنا إلى أن الطريقة الأولى لدخول هذه الكلمات هي طريقة شفهية بامتياز، ولا شك أن العاميةَ الأندلسيةَ لعبت دوراً كبيراً في نقل الكلمات من المسلمين إلى المسيحيين، فيما يمكن اعتباره هجرةً مضادةً لهجرة المسلمين الأندلسيين الذين اضطروا إلى اعتناق المسيحية أو مغادرة أراضيهم رغماً عنهم.

غير أن هناك طرقاً أخرى سلكتها بعض الألفاظ العربية الأصل في هجرتها الطويلة إلى اللغة الإسبانية. يمكن أن نذكر في هذا الباب مثالين بارزين، أولهما كلمة «الوزير» العربية التي دخلت الإسبانية بالطريق المباشر والمعتاد، أي، عبر الأندلس، فجاءت إلى الإسبانية بصيغة (alguacil) مع أداة التعريف، شأنها في ذلك شأن غالبية الألفاظ العربية المتوافدة إلى الإسبانية عن طريق الأندلس، تحويل الراء الأخيرة إلى لام، بملاحظة أن المعنى باللغة الإسبانية متخصص، إذ إن الكلمة تشير إلى عون مجلس البلدية. غير أن لهذه الكلمة طريقاً آخر سلكته عبر اللغة التركية ثم الفرنسية، فدخلت اللغة الإسبانية في وقت متأخر بصيغةٍ مختلفةٍ هي (visir) بدون ألف لام التعريف ومع الإبقاء على الراء الأخيرة، علماً أن معنى هذه الكلمة بالإسبانية هو مساعد الخليفة خصوصاً في الدولة العثمانية. أما المثال الثاني الذي يرتبط أشدَّ الارتباط بالمثال الأول، فهو كملة «خليفة» التي لم تدخل الإسبانية مباشرة، بل عبر اللغة التركية والفرنسية، بصيغة (califa) حيث نرى أن الخاء العربية تحوّلت إلى صوت الكاف الإسبانية، ودخلت الكلمة مجردة من أداة التعريف، كما هي العادة في الكلمات العربية التي دخلت عن طريق التركية والفرنسية.

ونتيجة للرحلة الطويلة التي قامت بها الكلمات العربية المهاجرة حتى دخولها اللغة الإسبانية، سواء بشكل مباشر عبر الأندلس حيث بدأت تنتشر في

بعض اللهجات الإسبانية المختلفة وتستقرّ فيها، أو عن طريق لغاتٍ ثالثةٍ، لقد ابتعد بعضها عن الأصول العربية، وهذا ما يجعل من الصعب جداً في بعض الأحايين ربطَ الكلمة المقترضة الإسبانية بأصلها العربي. على سبيل المثال، يمكن أن ننظر إلى بعض الكلمات الإسبانية المنحدرة من أصول عربية، مثل كلمة (alfombra)، التي معناها الحالي هو السجادة أو البساط، فمن يسمعها لا يتصوّر أن الأصل العربي هو كلمة «الحنبل»[3] بمعنى بساط أو قطعة من القماش توضع على منصة للجلوس. لماذا؟ لأن الكلمة شهدت تحولاً صوتياً أبعدها عن الأصل، مع تبديل الحاء العربية بفاء إسبانية[4] وتحويل النون العربية إلى ميم وإضاقة حرف الراء بالإسبانية وإسقاط اللام الأخيرة. كما أن معنى الكلمة تحوّل أيضاً من دلالةٍ محدودةٍ ومختصةٍ إلى دلالةٍ عامةٍ. وهناك مثال آخر هو كلمة (alféizar) التي تدل على عتبة النافذة الخارجية والتي تعود إلى كلمة «الحيّز» بعربية الأندلس بمعنى الفضاء المطَلّ عليه من النافذة. فمرة أخرى نلاحظ عدة تحولات صوتية، مع تحويل الحاء العربية إلى فاء إسبانية وإضافة راء في آخر الكلمة، كما أن المدلول تغيّر أيضاً مما هو عام، أي الفضاء، إلى ما هو خاص، أي المكان الذي يسمح بالإطلال على هذا الفضاء. وأخيراً يمكن الاطلاع على كلمة أخرى توضّح أن هناك أشكالاً ودرجاتٍ متباينةً من هذه الظاهرة، وهي (alfayate) التي اقتبست من الكلمة العربية «الخيّاط»، والتي تغيرت الخاء الأولى فيها لتصبح فاءً باللغة الإسبانية، في حين أن المدلول بقي نفسَه، أي، من يمارس حرفة صنع الملابس.

أنواع الألفاظ

من المعروف أن غالبية الألفاظ العربية المهاجرة التي وصلت إلى اللغة

(3) يشير الأستاذ كورينتي في المعجم الأندلسي إلى الاستخدام الأندلسي العادي لهذه الكلمة. كما أنها شائعة باللهجة المغربية بمعنى شكل من أشكال المنسوجات التراثية المغربية اليدوية العريقة في القدم.

(4) تعتبر هذه الظاهرة، أي، التحول من الحاء والخاء العربيتين إلى فاء باللغة الإسبانية ظاهرةً عاديةً جداً في الكلمات العربية الأصل. انظر (Corriente 1999:37-38).

الإسبانية واستقرت بها هي من الأسماء العادية التي تزخر بها لغة سيرفانتس، وقد بلغ عددها أربعة آلاف كلمة على حدّ قول بعض الباحثين[5]. فمن المعلوم أن الناطق باللغة الإسبانية يستخدم يومياً عدداً لا بأسَ به من الأسماء العربية الأصل ولا داعيَ لذكرها بالتفصيل، ولكن للتوضيح يمكن إيراد البعض منها لكي يأخذ القارئ فكرةً واضحةً عن أهمية هذه الكلمات: الزيت (aceite) والديوان (diván) والديوانة (aduana) والسُطيحة (azotea) والحدبّة (joroba) والساقية (acequia) والناعورة (noria) والزليج (azulejo) والليمون (limón) والقيراط (quilate) والقالب (gálibo) والأُسطوان (zaguán) والصفر (cifra, cero) والجبر (álgebra) وهَلمَّ جرّاً.

وخلافاً على كثرة الأسماء العادية التي تمكنت من الهجرة إلى الإسبانية، قلّ عددُ الأفعال التي سلكت نفس المسلك، فهذه ظاهرةٌ لسانيةٌ معروفةٌ، إذ إن الأسماء، التي تدل غالباً على المحسوسات، يسهل انتقالها من لغة إلى لغة أخرى، في حين أن الأفعال التي تدل على العمل والحركة لا تتمكن من الانتقال بنفس القدر من السهولة. وهذا ما أثبته تاريخ المعجم الإسباني الذي لا يتضمّن إلّا عدداً قليلاً جداً من الأفعال العربية الأصل، بملاحظة أن جميعها أفعالٌ مشتقةٌ من أسماء عربية سبق لها أن دخلت الإسبانية، وبعد ذلك أضيفت إليها سابقة (a) ولاحقة (ar) للأفعال المتعدية أو (arse) لأفعال المطاوعة، فهذه هي الطريقة الفعالة التي تلجأ إليها الإسبانية لخلق أفعالٍ جديدةٍ مشتقةٍ من الأسماء. فلنذكر بعض الأمثلة:

يقال باللغة الإسبانية، ولا سيما في منطقتي آراغون وكاتالونيا فعل (atabalar) بمعنى أذهل أو أربك، وفعل (atabalarse) بنفس المعنى ولكن

(5) ليس هذا المجال المناسب للدخول في تفاصيل تعداد الكلمات الإسبانية المقترضة من العربية، فلنكتف بالإشارة إلى وجود نقاشٍ حادٍ بين المختصين فيما يخص طريقة تعدادها، فهناك من يعد الكلماتِ المشتقةَ التي تمت صياغتُها بعد دخول الكلمة إلى الإسبانية، في حين أن باحثين آخرين يستبعدونها من التعداد. انظر، على سبيل المثل، الكلمات التي اشتقت من الزيت (aceite) والزيتون (aceituna) فهي التالية: (aceituno, aceitar, aceitoso, aceitunero, aceitazo, aceitera, aceitón) فمن هنا يتضح أن العدد يكون أكبر بكثير إذا أخذنا هذه المشتقات بالحسبان.

بالمطاوعة، وقد اشتقّ هذا الفعل من كلمة (tabal, atabal) العائدة إلى أصل عربي «الطبل»، لأن صوت الطبول الذي أحدثته جيوشُ المرابطين بالأندلس جعل المسيحيين في حالة ذهول وفزع.

كما يستخدم الناطقون بالإسبانية فعلاً آخر (alardear) بمعنى تباهى بشيء أمام الآخرين علناً، ويعود الفعل إلى اسم العرض (alarde) بمعنى العرض العسكري الذي يراد به إظهار قوة الجيش أمام الجمهور. ويقال أيضاً (alborozar, alborozarse) بمعنى إحداثِ سرورٍ بالغٍ وفرحٍ كبيرٍ أو الشعور بهما، وهو مشتق من اسم البروز (alborozo) الذي يدل على الفرح والغبطة باللغة الإسبانية، ولا يفوت القارئَ أن هذه الكلمة شهدت رحلةً معقدةً نوعاً ما، إذ إن الكلمة سافرت ورحلت، والمعنى تغير وابتعد قليلاً عن المعنى العربي الأصلي الذي يقتصر على الظهور والنشوء.

الصفات

وماذا عن فئة الصفات؟ أجمع الخبراء اللغويون على أن الصفات العربية لم تنتقل بسهولة إلى اللغة الإسبانية، خلافاً على الأسماء المحضة. غير أن هناك مجموعةً محدودةً من الصفات تستحق الدراسةَ والاستقراءَ لأنها شاهدةٌ على تطوراتٍ لغويةٍ مثيرةٍ، سواء لكونها صفاتٍ باللغة العربية تحولت إلى أسماء باللغة الإسبانية أو لابتعاد مدلول اللفظ من الأصل العربي إلى النتيجة باللغة الإسبانية، كما نراه في الأسطر التالية التي نسعى فيها إلى إيضاحِ شيءٍ من تاريخ هذه الألفاظ المهاجرة:

marrano (مُحرَّم): تاريخ هذه الكلمة لافتٌ للنظر، فإنها تدل بالإسبانية الحالية على معنيَيْن مختلفَيْن، فمن جهة أولى هي إحدى المسميات المطلقة على حيوان الخنزير المنزلي، ومن جهة ثانية هي صفة تطلق على الشخص القذر الذي يهمل واجباتِ التنظيف أو على الشيء الوسخ غير النظيف، ويبدو، استناداً إلى السجلات المعجمية القديمة المتاحة لدينا، أن المعنى

الأصلي هو تخصيص للمعنى العام لما هو محرّمٌ أو ممنوعٌ، فبدأ أهل الأندلس يطلقون هذه اللفظة على الخنزير كونَ لحمِهِ محرّماً لا يجوز استهلاكُه في الديانة الإسلامية ولا في الديانة اليهودية. بملاحظة أن هذه الكلمة لا تزال منتشرةً في بعض المناطق الإسبانية، وخصوصاً المناطق الريفية، للدلالة على الخنزير.

وبمرور الوقت تفرّع معنى الكلمة، فأصبح المسيحيون يستخدمون هذه الكلمة تحقيراً بالغاً للإشارة إلى المسلمين واليهود الذين أجبروا على اعتناق المسيحية، والذين ما زالوا يحافظون على نوع من الاشمئزاز والكراهية تجاه لحم الخنزير. هذا هو الفرع الأول. أما الفرع الثاني فهو استخدام الكلمة للدلالة على ما هو وسخ وقذر بناء على ما يتصف به هذا الحيوان من عدم النظافة، وقد توسّع هذا المجال الدلالي ليشمل من يتصرّف تصرّفاً غيرَ لائقٍ ومن هو رديء وحقير من الناحية الأخلاقية، إلى أن باتت الكلمة شتيمةً من الشتائم.

ومن ناحية التطور الصوتي الذي شهدته الكلمة، يجب الإشارة إلى أن النطق الأندلسي للكلمة يختلف قليلاً عن النطق الفصيح، فكان أهل الأندلس يفتحون الميم الأولى (مَحرّم) عوض ضمها (مُحرّم). ونظرًا إلى أن أهل الأندلس كانوا يميلون إلى تشديد المقطع الأخير للكلمات، فسقطت الفتحة الأولى، في حين أن الحاء تخففت وسقطت هي الأخرى بعد دخول الكلمة في اللغة الإسبانية. وقد احتفظ بتشديد الراء إذ إن اللغة الإسبانية تسمح بتشديد بعض الحروف ومنها حرف الراء. أما الميم الأخيرة، فتحولت إلى نون لأن اللغة الإسبانية لا تحبّذ الكلماتِ المنتهيةَ بالميم، وتميل إلى استبدالها بالنون. وفي الأخير لقد أضيفت حركة (o) في آخر الكلمة وهي لاحقة المذكّر، من أجل تمكين المتحدّث باشتقاق المؤنّث، مثلما هو معتاد في الكثير من الصفات الإسبانية. يمكن تبيان التطور الصوتي على النحو التالي:

1. مُحرَّم؛ 2. مَحرَّم؛ 3. مْحرَّم؛ 4. مَرّام: 56. مَرّان 6. مرّانو

mezquino (مسكين): لهذه الصفة عدة معانٍ، وفقا للمعجم الإسباني الصادر عن المجمع الملكي للغة الإسبانية، بملاحظة أن المعنيين الأول والثاني يشيران إلى الشخص البخيل الذي لا يحبّ الإنفاق لنفسه ولا للآخرين، وكذلك على من لا يتميز بالكرامة ونبل الروح. هناك معنىً ثالثٌ يدلّ على الشخص الصغير، ومعنىً رابعٌ يدلّ على الفقير والمحتاج، ومعنىً خامسٌ يدلّ على الشخص البائس غير السعيد. يتّضح من هذا التعدد الدلالي أن للكلمة مدلولين أساسين: يعتمد أولهما على البعد الأخلاقي مع شيء من التحقير، ويرتكز الثاني على البعد المادي والوضع المعيشي، بملاحظة أن استخدام الكلمة يغلب عليه شعورٌ بالترحّم والإشفاق على من تُطلَق عليه هذه الصفة.

وإذا نظرنا إلى معنى كلمة مسكين في المعجم العربي[6]، فهو الفقير والمحتاج الذي لا شيءَ له، مما يتبين أن المعنى الأصلي للكلمة بالعربية متعلقٌ بالفقر وعدم التوفّر على الموارد المادية، غير أن الكلمة، بعد الدخول في اللغة الإسبانية، شهدت توسعاً دلالياً، فبالإضافة إلى استمرار معنى الفقر والاحتياج، أصبحت تدل على البخيل والشحيح.

وفيما يخصّ أصل الكلمة الأخير، يؤكد الأستاذ كورينتي في معجمه أن الكلمة قامت بهجرة سابقة، إذ إنها أتت إلى العربية من خلال الآرامية «ميسكين (ا)» [miskēn[ā التي أتت إليها بدورها من اللغة الأكدية «موشكينو (م)» [muškēnu[m حيث كانت تدل على من يخدم في القصر تحت أوامر السلطان، ويبدو أن المعنى الأصلي هو الشخص الخاضع للسلطة أي الذي مرتبته الاجتماعية أدنى، ومن هنا اتخذت الكلمة معناها باللغتين العربية والإسبانية.

أما التغيرات الصوتية التي اعترت هذه اللفظة في هجرتها من العربية إلى الإسبانية، فليست بكثيرة، إنما أضافت اللغة الإسبانية كعادتها حركة (o)

(6) انظرلسان العرب، مادة س-ك-ن، حيث نجد مناقشة طويلة عن الفرق بين الفقيروالمسكين حسب القدماء. كما أننا نجد إشارة إلى أن سيبويه قال إن المسكين من الألفاظ المترحم بها.

في آخر الكلمة لتكوين صفةٍ يمكن تذكيرُها وتأنيثُها، كما أن السين تحولت إلى الزاي بالإسبانية، وأصبح معظم الإسبان في المناطق المركزية ينطقونها «ثاء» في حين أن أكثر أهل الجنوب ينطقونها «سين».

mohíno (مُهين): تطلق هذه الصفة بالإسبانية، من بين مدلولاتٍ أخرى، على الحزين والكئيب، بملاحظة أنها لا تستخدم كثيرا في لغة اليوم فقد أصبحت مهجورةً نوعا ما. وقد ناقش المختصون أصل هذه الكلمة، وتقدموا بأكثر من اقتراح، فمنهم من يذهب إلى أنها أتت من كلمة «مَهين» باللغة العربية (مادة م-ه-ن) بمعنى حقير أو ضعيف. ولتبرير وجود الضمة التي انتقلت إلى حركة (o) الإسبانية، يقولون إن أهل الأندلس كانوا ينطقون الكلمة بضمة عوضاً عن الفتحة، وفقا للبيانات الواردة في قاموس العربية الأندلسية للأستاذ كورينتي، ويستدلّون بشاهد أندلسي من أزجال ابن قزمان القرطبي «نمشي مُهين» بضم الميم. غير أن هناك من المختصين من يقول إن الأصل الحقيقي للكلمة الإسبانية إنما هو اللفظ العربي «مُهين» (مادة ه-و-ن) وهو اسم الفاعل لفعل أهان، بمعنى حقّر وأساء إلى، ولتبرير انتقال المعنى من الفاعل إلى المفعول يؤكدون أن هناك ميلاً شديداً لدى الناطقين بعامية الأندلس إلى الالتباس بين اسم الفاعل واسم المفعول وإلى استبدال الواحد بالآخر في النصوص الأندلسية. ومهما تكن حقيقة الأصل، فإن الكلمة العربية تمكنت، بعد هجرةٍ طويلةٍ، من الوصول إلى برّ الأمان، أي إلى لغة سرفانتيس العريقة.

rehén (رِهان): تدلّ هذه الكلمة بالإسبانية على الشخص الذي احتُبس ضماناً لإجبار شخص آخر على استيفاء شروط معينة مثل دفع مبلغ مالي. هذا المعنى هو المعنى الموثّق في النصوص الإسبانية القديمة العائدة إلى القرن الميلادي الثالث عشر، وفقاً لبيانات المعجم التاريخي الإسباني. كما أن الكلمة تدلّ على الشيء الذي يوضع ضماناً بنفس الغرض. الاستخدام الحديث لهذه الكلمة مقتصرٌ على حالات اختطاف الأشخاص من لدن المجرمين. غير أن الكلمة تحولت إلى صفة تستخدم مجازاً للدلالة على الشخص الذي يبقى

خاضعاً لشيء ما أو مجبراً عليه. ويتضح من ذلك أن المدلولات الشائعة بالإسبانية تتطابق والمدلولات المتداولة بالعربية، فلم يطرأ تحول دلالي جدير بالذكر في هذه الكلمة مهما كانت رحلتُها طويلةً. فبما أن الرهن هو في اللغة مطلب الحبس وفي الشرع حبس الشيء بحق يمكن أخذه منه، فيتبين أن الرهين يأتي بمعنى المفعول، أي الشخص المحبوس. ويقال كثيرًا في اللغة: أنا رهين بكذا، تماماً مثلما نجده بالإسبانية.

وفيما يتعلق بالتطور الصوتي للكلمة من الأصل العربي إلى الصيغة التي اتخذتها الإسبانية، يجب التأكيد على أنه من الأرجح، حسب ما يقول الأستاذ كورينتي في معجمه، أن يكون الأصل صيغةَ الجمع «رِهان» ولا المفرد «رهين»، لسببين أولهما أن هذه الكلمة يكثر توثيقها بالجمع في المراحل الأولى من الإسبانية (arrehenes, arrefenes, arrahenes, rehenes)؛ أما السبب الثاني فهو أن حركة (e) الإسبانية في المقطع الأخير للكلمة لا تأتي عادة من حركة الكسرة أو من الياء العربية (رهين)، بل إنها تأتي، في معظم الألفاظ ذات الأصول العربية، من حركة الفتحة أو الألف الممدودة (رهان) التي تحولت بعربية الأندلس إلى صوت متوسط بين الألف والياء، أو بين الفتحة والكسرة، أي، صوت (e)، وهذه الظاهرة اللسانية التي تسمى الإمالة كانت منتشرةً في الأندلس وعلى وجه خاصّ في منطقةِ غرناطةَ وجوارِها.

alazán (الأصهب): تدلّ هذه الكلمة على لون ما من الألوان يشبه اللون الأحمر إلى حدٍ ما، وهو قريبٌ أيضاً من لون القرفة، بملاحظة أن مجال استعمال الكلمة خاصٌ جداً، فإنها تدلّ غالباً على لون الخيل أو الفرس، بحيث أن من يسمع هذه الصفة يربطها في ذهنه مباشرةً بالخيل والفرس. وبعد أن تمسّك بعضُ العلماء قديماً بأن أصل الكلمة يعود إلى اللفظ العربي «الحِصان»، أوضح المختصون حديثاً، بناء على أسباب معنوية، أن الأصل الحقيقي هو اللفظ العربي الذي يفيد بنفس المعنى تقريباً، إذ لا يُعقل أن يستخدم أهلُ الأندلس كلمةَ الحصان، وهي كلمة عامة جداً، للدلالة على لونٍ محددٍ، ولا سيما إذا أخذنا بالاعتبار أن الأندلسيين كانوا على معرفة

ودراية عميقتين بخصائص الخيل ومختلف مميزاتها من لون وحجم وقوة ومقاومة وما إلى ذلك.

gandul (غَندور): يكثر استخدام هذه الصفة باللغة الإسبانية الحديثة للدلالة على الشخص الكسلان الذي لا يحبّ الحركة والعمل، غير أن لها في الإسبانية القديمة معنىً آخرَ مختلفاً، فإنها تدلّ على الشخص الوغد المخادع. في المعاجم العربية (المعجم الوسيط وتاج العروس على سبيل المثال) يأتي الغُندور في مادة غ-ن-د-ر بمعنى الناعم الحسن الشاب والغلام السمين الغليظ، مأخوذ من الغُندَر، الذي يدل على الشخص السمين الغليظ وكذلك على الغلام الناعم. يتضح من ذلك أن الكلمة الإسبانية شهدت تحولاً دلالياً من الشخص السمين الغليظ والناعم إلى الشخص الذي لا يحبّ العمل والحركة. ومن جهة أخرى اتخذت الكلمة معنى الشخص الوغد والمخادع استناداً إلى معنىً آخرَ للكلمة سجّله بدقة المستعرِب الهولندي رينهارت دوزي في معجمه المشهور[7] حيث يقول ما يلي: «الغندور يحاول بل يبذل جهدَه على أن تعجب به الفتيات، وهو فرح كريم سخي إذا كانت لديه نقود، وهو شجاع أو أنه على الأقل يتظاهر بالشجاعة، فإذا اعتدى غريب على وطنه، تسلّح وانضمّ إلى المدافعين».

وفيما يخص شكل الكلمة الإسبانية، فمن الملاحظ، إضافة إلى فتح الغين، استبدال الراء العربية الأخيرة بلام إسبانية، ويعد هذا التحول الصوتي عادياً في الكلمات العربية الأصل، إذ إن الإسبانية لا تفرّق بسهولةٍ بين الأصوات الجانبية (ومنها الراء واللام) ولا سيما في أواخر الكلمات.

علاوة على الصفات التي سبق رصدُها وتحليلُها، هناك صفاتٌ أخرى واردةٌ بالإسبانية، من بينها: asesino (حشاشين)؛ zaíno (زهيم؟)؛ haragán (إما «خرأ كان»؟ وإما خرقان؟)؛ baldío (باطل أو باطلي)؛ zarco (أزرق أو

(7) تكملة المعاجم العربية. انظر قائمة المراجع.

زرقاء). غير أننا لن نتعمق في تفاصيلها هنا، فنتركها للدراسة في المستقبل القريب، فالأمثلة التي أوردناها وناقشناها بشيء من التفصيل تكفي لصياغة فكرةٍ عامةٍ عن طريقة دخول هذه الصفات العربية الأصل في ربوع لغة سرفانتيس عن طريق الأندلس.

وهناك باب آخر من أبواب الصفات باللغة الإسبانية له ارتباطٌ خاصٌ باللغة العربية، يتعلق الأمر بالألفاظ التي تربط شخصاً معيناً بالمكان الذي ولد فيه أو الذي أقام به أو الذي ينحدر منه. من المعروف أن هذه الألفاظ، التي تعتبر من فئة الصفات باللغة الإسبانية، تتكون من عنصرين: العنصر الأول (هو الاسم) الذي يدلّ على المكان، والعنصر الثاني (هو إضافة صرفية أو لاحقة)، الذي يدل على العلاقة المعنوية الرابطة بين اسم المكان وبين الشخص. على سبيل المثال، إذا نظرنا إلى اسم المدينة الأندلسية المعروفة إشبيلية (Sevilla)، فنجد أن الشخص المولود أو المقيم في إشبيلية يُدعى sevillano وتتكون هذه التسمية بالعنصر الأول أي اسم المدينة (Sevilla) زائد العنصر الثاني وهو لاحقة ano- اللاتينية الأصل، بملاحظة أن اللغة الإسبانية تستخدم أكثرَ من لاحقةٍ للتعبير عن هذه العلاقة المعنوية، فالشخصُ المولودُ في مدينةِ قرطبةَ يسمى cordobés (لاحقة es-) في حين أن الشخص المولود في مدينة مدريد يدعى madrileño (لاحقة eño-).

هذه هي القاعدة المطردة بالإسبانية على مر العصور التاريخية. ومن اللافت للنظر، ونحن ننتبه إلى هذا النوع من الألفاظ، أن اللغةَ الإسبانيةَ اقترضت من اللغة العربية لاحقةً أخرى للتعبير عن هذه الدلالة المعنوية، أي الانتساب المكاني، وهي لاحقة النسبة الكثيرة الانتشار بالعربية والتي لا تقتصر فيها على التعبير عن علاقة الانتساب المكاني (مصري وسعودي وفرنسي وإلخ)، فلها دلالات أخرى مثل اتخاذ الصفة التي يتميز بها الاسم الأصلي من لون أو مادة (رمادي وبنفسجي وزجاجي وحجري وإلخ) والانتماء إلى نشاط أو حركة فكرية (شيوعي واشتراكي وتقدمي ورجعي وغيرها كثير).

يتضح الأمر إذا نظرنا إلى بعض الألفاظ الإسبانية التي تنتهي بلاحقة النسبة، مثل الأندلسي (andalusí)[8] والسبتي (ceutí، نسبة إلى مدينة سبتة المسماة بالإسبانية Ceuta) والسرقسطي (zaragocí) والمغربي (marroquí) والمغاربي (magrebí) والعراقي (iraquí) والسعودي (saudí) والإماراتي (emiratí) والعُماني (omaní) واليمني (yemení) والصومالي (somalí) والسقطري (socotrí، نسبة إلى جزيرة Socotra) والإيراني (iraní) والباكستاني (paquistaní) والأذري (azerí) نسبة إلى أذربيجان.

تُستخدم هذه اللاحقة لأسماء بلدان ومدن لها ارتباطٌ بالعالم الإسلامي أو الشرقي، علماً أن الآذان الإسبانية تعرف بمجرد سماع هذه الألفاظ أنها تشير إلى شخصٍ ينتمي إلى قُطرٍ أو منطقةٍ عربيةٍ وإسلاميةٍ. ولذلك تبقى هذه اللاحقة محدودةَ الاستعمال باللغة الإسبانية. أَضِفْ إلى ذلك أن هناك منافسةً معجميةً قويةً مع اللواحق الأخرى ذات الأصول اللاتينية، فعلى سبيل المثال توجد بعض الأسماء التي كان من المفترض أن تأخذ النسبة العربية، غير أنها أخذت بالفعل إحدى اللواحق اللاتينية الأصل، مثل اسم سكان مدينة مليلية الذي هو (melillense) ولا (melillí*) قياساً على سبتي (ceutí). وهناك أسماءٌ دالةٌ على مواطني بعض البلدان العربية لا تنتهي بلاحقة النسبة بل بلاحقة لاتينية الأصل، مثل لبناني (libanés) أو ليبي (libio). ومن اللافت للنظر أن بعض هذه الأسماء اتخذت مزيجاً من اللاحقتين العربية والإسبانية مع إضافة حرف النون وحركة (o)، مثل جزائري (argelino) وتونسي (tunecino). كما أن اسم المنسوب إلى مدينة سرقسطة شهد منافسةً معجميةً بين النسبة العربية (zaragocí) والنسبة

(8) تجدر هنا الإشارة إلى أن هذه الكلمة (andalusí) لم تصبح معتادةً ومستساغةً لدى الآذان الإسبانية إلا ابتداء من الثمانينات من القرن الماضي حيث بدأت تحل محل تعبيرٍ آخرَ هو (hispano-árabe) للدلالة على كل ما له علاقة بالأندلس. هكذا تمكنت اللغة الإسبانية أخيرا من التفريق بين لفظة (andaluz) الدالة على من ينتمي إلى المنطقة الجنوبية الإسبانية (Andalucía) ولفظة (andalusí) الدالة على من ينتمي إلى الأندلس، أي، الكيان السياسي والاجتماعي والتاريخي السائد في أراضي الجزيرة الإيبيرية من أوائل القرن الميلادي الثامن حتى أواخر القرن الخامس عشر.

اللاتينية (zaragozano) بملاحظة أن النسبة الغالبة والسائدة بالإسبانية هي المقتبسة من اللغة اللاتينية (zaragozano). ونفسُ الشيء يمكن قولُه فيما يخصّ نسبةً أخرى تطلق على ما يتعلق بملك مسيحي هو ألفونسو العاشر الملقب بالحكيم الذي أدى دوراً ثقافياً مهماً في القرن الميلادي الثالث عشر عبر تشجيع وريادة حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية والإسبانية، فيقال باللغة الإسبانية ألفونسي (alfonsí) بهذا المدلول الخاص، غير أنه يوجد أيضاً (alfonsino) مع زيادة اللاحقة اللاتينية الأصل. ويعد ذلك من باب تقليص مجال استعمال هذه اللاحقة «المهاجرة»، وتفضيل اللواحق الإسبانية الأخرى التي حلّت محلَّها في أغلب الألفاظ.

ولكن، بالمقابل، لقد توسّع نوعاً ما مجالُ استعمال هذه اللاحقة العربية الأصل، فصار الناطق باللغة الإسبانية في الأزمنة الراهنة يستخدمها في بعض الكلمات التي تشير إلى حركاتٍ فكريةٍ لها علاقةٌ بالعالم الإسلامي: سُني (sunní) وشيعي (chií) فقد أصبحت هاتان الكلمتان معروفتين لدى المتلقي الإسباني العادي، بفضل شيوعهما في وسائل الإعلام وأهميتهما الدينية والسياسية.

وإضافة إلى وجود لاحقة النسبة العربية باللغة الإسبانية قديماً وحديثاً للدلالة على من ينتمي إلى مكان أو حركة، لا ننسى أن الإسبانية احتفظت بهذه النسبة «المهاجرة» في مجموعةٍ صغيرةٍ من الكلمات الدالة على معانٍ مختلفةٍ، ولعل أشهرَها كلمةُ «جبلي» (jabalí) التي تدل على الخنزير البرّيّ اعتماداً على كونه ساكناً في المناطق الجبلية. وتجدر الإشارة إلى أن ما كانت في البداية صفةً تطلق على الحيوان صارت اسماً حقيقياً يدلّ عليه. كما أن هناك كلمةَ قرمزي (carmesí) التي تدل باللغة الإسبانية على اللون المعروف. وعلاوة على ذلك، نجد كذلك كلمة «بلدي» (baladí) ولها تاريخ لافت للنظر، إذ بدأت تشير في الإسبانية القديمة على من ينتمي إلى بلدة أو مكان ما، ولكن بمرور الزمن أصبحت تشير إلى من لا أهمية له أو من ليس له شأن. ومن الغالب ورودُها مسبوقةً بالنفي في تعابير على منوال (no es cosa baladí)

أي ليس بأمر هين أو ليس بشيء قليل الأهمية.

إذا نظرنا بعيونٍ ثاقبةٍ ومن الناحية اللسانية إلى هذه الظاهرة اللغوية، يمكننا الوصولُ إلى نتيجة واضحة، هي أن الأمر ليس مجردَ اقتراضِ كلمةٍ بعينها، بل يعني اقتراضَ طريقةٍ لصياغة ألفاظ مشتقة، ويمكن اعتبار هذه الظاهرة هجرةً لسانيةً من طراز آخر، أي، هجرة لا تقتصر على المعجم وعلى الجانب السلبي بل تتعداه للوصول إلى مستوى الصرف والتركيب والإنشاء.

الحروف والأدوات

هجرة الحروف والأدوات من لغةٍ تنتمي إلى عائلة لغوية معينة إلى لغةٍ تنتمي إلى عائلة لغوية أخرى، حالَ العربية المنتمية إلى العائلة الساميّة والإسبانية المنتمية إلى العائلة الهندو أوروبية، أمرٌ غريبٌ للغاية، غير أن التاريخ الأندلسي شهد استثناءً مرموقاً لعله يثبت هذه القاعدة. يتعلق الأمر بحرف «حتى» الذي تمكن من الانتقال إلى اللغة الإسبانية بصيغة (hasta) وإلى اللغة البرتغالية بصيغة (até). من اللافت للنظر أنّ لهذا الحرف استخداماتٍ مختلفةً في كلّ من اللغتين الإسبانية والبرتغالية تشابه إلى حد بعيد الاستخدامات التي نلاحظها في اللغة العربية، فيعمل حرفَ جرٍّ وكذلك أداةَ ربطِ الجمل للتعبير عن الغرض المقصود إليه، تماماً مثل (حتى) العربية. غير أننا في هذه الورقة لن نتعمق في الأمر، فلنكتفِ بالإشارة إلى وجود هذا الاقتراض الفريد من نوعه.

الختام

لقد قمنا خلال الصفحات السابقة بإطلالةٍ سريعةٍ على تاريخ بعض الألفاظ العربية التي انتقلت بهجرة لافتة للنظر من اللسان العربي إلى اللسان الإسباني. وقد سعينا إلى تسليط الضوء على بعض التحولات الدلالية والصوتية التي اعترت هذه الكلماتِ في المرحلة الأندلسية، قبل دخولها وانتشارها بالإسبانية، تعود إلى مميزات عربية أهل الأندلس وطريقة النطق

لدى الأندلسيين، وكذلك في مرحلة لاحقة، بعد دخولها الإسبانية، حيث شهدت هذه الفئة من الألفاظ تحولاتٍ أخرى تعود إلى الخصائص الصوتية للغة الإسبانية وإلى التطورات الدلالية الخاصة بها.

نختم هذه الورقة قائلين إن هجرةَ الألفاظ ليست مثل هجرةِ الناس، فإن الألفاظَ كائناتٌ مهاجرةٌ تنتقل من مكان إلى مكان، وتتغير بسبب البيئة الجديدة التي تستقر بها وما تمرّ بها من تقلبات ومغامرات عبر التاريخ، غير أن الألفاظ الأصلية تبقى أيضاً في البقعة الأصلية وقد تتغير هي الأخرى، أو تبقى كما هي، بحيث أن الصيغة الأصلية والصيغة المهاجرة تتخذان لباساً خاصاً من الناحية اللغوية والصوتية والدلالية قد تجعل من الصعب على المتلقي إدراك القاسم المشترك بينهما. وهنا تكمن أهمية عمل الباحثين والخبراء في الكشف عن تاريخ هذه الألفاظ المهاجرة في الزمان والمكان.

المراجع

• المراجع باللغة العربية

- إغناثيو فيراندو، 1998، "اللغة العربية في مدينة طليطلة بعد الفتح النصراني ووثائق المستعربين"، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، 30، سلسلة مدن الأندلس: طليطلة، ص. 161-170.

- فيديريكو كورينتي، 1985، "خصائص كلام أهل الأندلس نثراً ونظماً"، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، 23، 2. 59-68.

- فيديريكو كورينتي، 2001، "العلاقات اللغوية والأدبية بين الأندلس وسائر الدول في شبه الجزيرة الإيبيرية"، مجلة دراسات مغاربية، 14، 2001، ص. 3-18.

ابن قزمان القرطبي، 2013، "إصابة الأغراض في ذكر الأعراض.. ديوان ابن قزمان القرطبي.. إمام الزجالين المتوفى سنة 555 هـ / 1160 م"، تحقيق فيديريكو كورينتي، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، طبعة مزيدة ومنقحة.

محمد بن شريفة، 1971 – 1975، "أمثال العوام في الأندلس، لأبي يحيى الزجالي القرطبي (617 –694هـ)"، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصيل، الرباط، 2 مجلد.

• المراجع باللغات الأخرى

- Corriente, Federico, 1997: A Dictionary of Andalusi Arabic, ed. Brill, Leiden.

- Corriente, Federico, 1999: Diccionario de Arabismos y Voces Afines en Iberorromance, ed. Gredos, Madrid.

- Corriente, Federico (2004). “El elemento árabe en la historia lingüística peninsular”. Historia de la lengua española, p. 185206-. Barcelona.

- Corriente, Federico, 2008: Dictionary of Arabic and Allied Loanwords. Spanish, Portuguese, Catalan, Gallician and Kindred Dialects, ed. Brill, Leiden.

- Corriente, Federico & Pereira, Cristophe & Vicente, Ángeles 2017: Dictionnaire du faisceau dialectal árabe andalou, ed. De Gruyter, Berlin/Boston.

- Dozy, Reinhardt, 1927: Supplément aux dictionnaires arabes, ed. Brill, Leiden.

- Ferrando, Ignacio, 2000: “The Arabic language among the Mozarabs of Toledo during the 12th and 13th centuries”, Arabic as a Minority Language, ed. Jonathan Owens, Mouton de Gruyter, Berlin — New York, 4563-.

هجرة اللغات.. العربية والإسبانية نموذجاً

الدكتور وليد صالح الخليفة

هاجر الأفراد على مرّ الأزمان وهاجرت الجماعات بعيداً عن أوطانها سواء للتجارة أو الحروب وغيرها، ناقلةً معها لغاتها إلى الأماكن الجديدة التي استقرت فيها، وغالباً ما اختلطت لغات المهاجرين بلغات الشعوب الأصلية، فنتجت عن ذلك لغات هجينة بفعل التلاقح وانتقلت مفردات وعبارات ومصطلحات من لغة إلى أخرى، مشكّلةً بمرور الوقت جزءاً أساسياً من نسيج لغة بلد الهجرة. وإذا تمتعت لغة المهاجرين بالسلطة السياسية أو كانت أرقى ثقافة، فإن تأثيرها على لغات المستقر الجديد يكون أقوى وأعمق. هذا ما يجري الآن مع اللغة الانجليزية لسعة انتشارها وكونها لغة أقوى كيان عسكريّ وماليّ وتكنولوجيّ في العالم. كما أنّ الفرنسية بصفتها قوة مستعمرة تأثيراتها واضحة على لغات أصلية لعديد من البلدان في القارة الأفريقية وكذا على العربية وخاصة العامية في تونس أو الجزائر. وهذا ما حصل مع اللغة اللاتينية حين استولى الرومان على أجزاء كبيرة من أوروبا وأفريقيا وآسيا. وتكرر الأمر مع اللغة العربية إذ انتقلت منها إلى لغات مثل الفارسية والتركية العديد من الكلمات. ورأينا ذلك أيضاً في الأندلس لأن العربية كانت تمثل لغة الإدارة والثقافة فانتقلت منها الكثير من المفردات والألفاظ والمصطلحات إلى اللغة الإسبانية إلى الحدّ الذي يجعلنا نرى أن الكلمة المستعارة من العربية تكاد تكون وحيدة لا مرادف لها في الإسبانية.

تشتمل اللغة الإسبانية على ما يقرب من أربعة آلاف كلمة من أصل عربي بحكم التعايش الطويل الذي دام حوالي ثمانية قرون بين العرب المسلمين

وسكان شبه الجزيرة الإيبيرية. ويعدّ القاموس الرسميّ للأكاديمية الملكية للغة الإسبانية السجل الحقيقي لأصول الكلمات ويجمع في طيّاته تلك التي هي من أصل عربي إذ يشير إلى ذلك بشكل دقيق. ويؤكد بعض المستعربين أنّ هذا القاموس لا يشتمل على كلّ الكلمات من أصل عربيّ، وأن بعض تلك الكلمات المعتبرة عربية الأصل ليست هي كذلك. (Corriente, 1996: 59)

وتدل كثرة الكلمات العربية التي دخلت الإسبانية على حقيقة مهمّة طالما نسيها المؤرخون وبعض الدارسين، وهي أن العرب المسلمين عندما فتحوا بلاد الأندلس لم ينعزلوا عن الشعب الأصلي، ولم يعكتفوا في معسكراتهم بعيدين عما يجري في المدن والقرى، بل إنهم تعاملوا مع هؤلاء الناس عن قرب واختلطوا بهم ونقلوا إليهم خلاصة تجربتهم وعصارة معارفهم وعلومهم التي أثمرت فيما بعد خير الثمار، فصارت مدن مثل قرطبة وإشبيلية وسرقسطة مراكز للعلم والحضارة. وأدى كذلك احتكاكهم بالواقع وتعايشهم مع المجتمع عن قرب إلى حفر آثارهم على حياة الناس، وكانت من نتائج ذلك التغييرات التي شملت الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية، ومنها اللغة التي تشربت بالمصطلحات والأسماء العربية. ولا يقتصر التأثير اللغوي على دخول المئات من الكلمات العربية في الإسبانية، بل تعداه إلى تسمية الأماكن والبلدان والجبال والطرق والوديان والأنهر والآبار. وقد بقيت تلك الأسماء حتى يومنا هذا، على الرغم من أن بعضها قد تحوّر وتغيّرت صورته فصار من الصعب اكتشاف أصله العربيّ.

ويجدر بالذكر أن استفتاء قامت به إحدى الصحف الإسبانية في الثمانينات من القرن الماضي بخصوص أجمل عشر كلمات إسبانية، تبيّن أن أربعة منها كانت من أصل عربيّ. (Giol, 1983: 3)

والكثير من هذه الكلمات لا توجد لها مرادفات مما يضطرّ المتحدث بالإسبانية إلى استعمالها دون غيرها. وأغلب الكلمات الإسبانية من أصل

عربي تبدأ بأل التعريف التي ألحقت بالكلمة بشكل لا ينفصل، وجعلت هذه الحقيقة أن تستخدم الإسبانية أداتين للتعريف في حال ورود الكلمة معرفة في نص ما أو في أثناء الحديث: أل التعريف العربية الملحقة والتي صارت تشكل جزءاً لا يتجزأ من الكلمة، وأداة التعريف في الإسبانية، كما في كلمة «قطن» El algodón، وهنا نرى أداتي التعريف معاً، الإسبانية والعربية.

وقد بلغت اللغة العربية أوج حضورها في الحياة الاجتماعية والثقافية في الأندلس في القرنين العاشر والحادي عشر. ثمّ أخذت تتراجع بعدها شيئاً فشيئاً وخاصة بعد سقوط مدينة طليطلة سنة 1085. ومع ذلك فقد بقيت آثارها متداولة وخاصة في الاستعمال اليومي وفي الاستخدام الدارج. واعتباراً من القرن الرابع عشر بدأت محاولات استعادة اللغة اللاتينية .الإسبانية في شبه الجزيرة الإيبيرية بهدف القضاء على كل تأثير يخص الإسلام وما يتعلق به من عادات وتقاليد وعناصر ثقافيّة بما في ذلك اللغة العربيّة. (Chejne, 1993: 174)

اللاتينية - الرومانسية

اللاتينية هي لغة هندو - أوروبية اكتسبت لفظها من اسم «لاثيو» وهو إقليم يقع في وسط إيطاليا وعاصمته روما. وتحدث بهذه اللغة الرومان القدماء وانبثقت منها اللغات الرومانسية. ومثلت اللاتينية اللغة الرسمية للإمبراطورية الرومانية لغاية انهيارها وسقوطها سنة 476 م في الغرب و1453 في الشرق بسقوط القسطنطينية، عاصمة الروم البيزنطيين أو الرومان الشرقيين بيد الإمبراطورية العثمانية.

تعكس اللاتينية العامية لغة قوم يمتازون بانعدام الثقافة الأدبية، ثم إنها لغة الطبقات الدنيا من المجتمع، مقابل اللاتينية الفصيحة التي كانت وسيلة التواصل للطبقات المتعلمة والمسؤولين والمتمكنين مادياً. وتتمثل

الفوارق بين مستويي هذه اللغة في المفردات والنحو والصرف واللفظ وغيرها.

انتشرت اللاتينية العامية اعتباراً من القرن الثالث للميلاد مع أنها كانت موجودة قبل ذلك. ويعرّف قاموس الأكاديمية الإسبانية للغة العامية اللاتينية بأنها «اللغة التي استخدمتها الطبقات الشعبية في الأقاليم المحكومة من طرف الرومان. وتتميز عن اللاتينية الفصيحة بخصوصيات منها طرق التلفظ وقواعدها المبسّطة واستخدامها لمفردات وتعابير جديدة»[1].

وفي القرن العاشر الميلادي بدأت اللغات ذات الأصل اللاتيني بالظهور حيث نبعت من العامية وأخذت تتشكل وتستقل. هذا يعني بأن اللغات الحديثة ذات الأصل اللاتيني لم تنبع من اللغة الأدبية الرفيعة المستعملة من قبل الأدباء والكتّاب، بل من الاستخدام الشعبي البسيط. وهناك من يعتقد بأن اللاتينية الفصيحة والعامية تعايشتا جنباً إلى جنب لقرون طويلة. وتعتبر الحواشي المدوّنة على النصوص اللاتينية الموجودة في دير «سان ميان ديلا كوغويا» في شمال إسبانيا بداية انبعاث اللغة الإسبانية.

بدأ تماس اللغة العربية مع اللاتينية في شمال أفريقيا منذ نهاية القرن السابع للميلاد واستمر ذلك في بداية القرن الثامن في شبه الجزيرة الإيبيرية. وقد أثرت العربية وتأثرت باللاتينية، حيث دخلت إليها من لغة «هوراثيو» مئات المصطلحات العلمية وخاصة في ميدان الطب والزراعة والصيدلة، وذلك، سواء من اللاتينية الفصيحة أو من الأقل فصاحة والمنتشرة في شمال أفريقيا والتي جلبها إلى الأندلس السكان الأصليون من البربر. ويمكن الكشف عن تلك الكلمات من خلال أسماء الأماكن التي سموا بها المدن والقرى والضيعات بالأندلس. وكما ترى (Viguera, 2002) فإن تماس اللاتينية ولهجاتها المحلية مع العربية بلغ درجة أكبر من خلال

(1) http://dle.rae.es (Consulta: 29/12/2016)

ترجمة نصوص هذه اللغة إلى العربية، وانعكس ذلك على عدد المفردات المستعارة والتي بلغت حسب الدارسين 5% من مجموع كلمات العربية الأندلسية. غير أن هذه النسبة تضاءلت شيئاً فشيئاً لانتشار التعريب بعد أن صارت العربية لغة السلطة السياسية والدين والثقافة.

وأطلقوا تسمية «المستعربين» على سكان الأندلس الأصليين من الذين تعربوا وأصبحوا مزدوجي اللغة مع لغاتهم الأم (الرومانسية). وتطلق كلمة الرومانسية على اللغات التي انبثقت من العامية اللاتينية وتفرعت في لغات عدة من أشهرها: الإسبانية والفرنسية والإيطالية والبرتغالية والرومانية والجليقية والقطلانية. أما من أسلم منهم فقد أطلقت عليه تسمية «المولدين». ومن الواضح أن حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر قد خلقت لغة علمية في هذه الأخيرة والتي انتقلت لاحقا إلى اللغات الأوروبية الأخرى. تلك اللغة أصبحت مليئة بالمصطلحات العربية في الطب والبيطرة وعلم النبات وغيرها، والتي ما زالت قائمة حتى يومنا. وحتى لغة مثل الجليقية التي تولدت عن اللاتينية، وعلى الرغم من عدم مكوث العرب في أراضي هذا الاقليم أثناء حكمهم للأندلس، فإن بها الكثير من المفردات العربية التي دخلت على الأغلب إليها عن طريق البرتغالية لتشابه اللغتين في اللفظ والقواعد والصرف.

وجدير بالذكر أن المفردات اللاتينية أولاً ثم العربية ثانياً كانت الأكثر شيوعاً واستعمالاً في الإسبانية حتى القرن السادس عشر. وصارت تلك الكلمات التي تتجاوز الأربعة آلاف كلمة جزءاً أساسياً ومهماً من لغة «سربانتس» وانتقلت منها إلى لغات أوروبية أخرى وإلى دول أميركا اللاتينية. ولم تقتصر على أسماء الأشياء والمواد، بل تجاوزتها إلى أسماء الأماكن والمدن.

ويفسر الدارسون «استعارة المفردات العربية من قبل لغات أخرى إنّما هو دخول أية كلمة سواء وردت من الفصحى أو العاميات العربية إلى لغة

أخرى، والمعنية في هذه الحالة اللغة الإسبانية. وتطويع تلك الكلمات تم بشكل تدريجي من حيث التركيب أو اللفظ» (Ammadi, 2005: 306).

ويرى البعض بأن بين العاميات العربية والرومانسية تشابهاً كبيراً حيث كانت العربية الفصحى اللغة الأم للعاميات العربية، وكانت اللاتينية أصل اللغات الرومانسية. فالعربية واللاتينية كانتا لغتين لحضارتين وثقافتين. غير أنهما وبعد انتشارهما في الأقاليم والبلدان تأثرتا باللغات المحلية وأصبحت لغة الكلام تبتعد نوعاً ما عن اللغة الرسمية الفصيحة. وعلى الرغم من «أن اللاتينية هي لغة هندية أوروبية، والعربية لغة ساميّة، وأنهما ينتميان إلى عائلتين لغويتين مختلفتين لا صلة تربطهما، وتنتميان إلى نظامين لغويين مختلفين، فمع ذلك نجد بينهما تشابهاً في التطور من اللغة الفصحى إلى العاميّات» (Frías, 2000: 17)

وتختلف اللغة الإسبانية عن باقي اللغات الرومانسية لكثرة الكلمات ذات الأصول العربية فيها. إنها نتيجة التعايش الطويل بين العرب المسلمين وسكان شبه الجزيرة الإيبيرية. فعند وصول العرب إلى هذه البقاع كانت اللاتينية تعاني من فقر كبير في تراكيبها ومفرداتها، بينما كانت العربية غنية ومؤثرة وخاصة ما بين القرنين التاسع والثاني عشر. لذا فقد كان من السهل أن تنتشر العربية بين السكان المحليين وتدخل الكثير من مفرداتها في اللغات المحلية لتشمل ميادين الزراعة والغذاء والعمارة والريّ والأدب والفلسفة والاقتصاد وغيرها.

العربية الأندلسية

لدى قدوم المسلمين إلى شبه الجزيرة الإيبيرية عام 711م لم يكن يتحدث العربية من القادمين الجدد إلّا القليل، لأن معظم الذين رافقوا ابن زياد كانوا من البربر المتحدثين بلغة الأمازيغ. غير أن الموجات اللاحقة التي وصلت إلى الأندلس كان أغلبها قادماً من اليمن وبلاد الشام وهو ما ساعد

على انتشار اللهجات العربية لقبائل هذين البلدين خاصة إلى جانب العربية الفصيحة لغة الإدارة والثقافة. غير أن تلك اللهجات اقتربت بعضها إلى بعض حتى كادت أن تصبح لهجة واحدة في القرن العاشر وخاصة في الأماكن الحضرية والمدن والتي عرفت فيما بعد بالعربية الأندلسية. وبالتكامل مع الرومانسية الإسبانية للسكان الأصليين أصبح هناك ازدواج لغوي وبصورة خاصة عند طبقة المتعلمين ومن الذين اتخذوا الدين الرسمي عقيدة وممارسة. في حين أن المناطق القروية المتصفة بالفقر والتخلف واتباع الدين المسيحي استمرت على استخدام الرومانسية بشكل عام (Corriente, 1992: 34).

وخلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر تحول الازدواج اللغوي ليندمج في لغة واحدة تكاملت معالمها تماماً في القرن الثالث عشر. غير أن عمليات استرجاع أراضي الأندلس من أيدي العرب والمسلمين أعادت شيئاً فشيئاً حالة الازدواج اللغوي إلى ما كانت عليه، لأن العربية بدأت تنحسر عن الأقاليم المسترجعة ويعود سكانها إلى استخدام اللغات الرومانسية.

وتجدر الاشارة إلى أن العربية الأندلسية هي أقرب ما تكون إلى العربية المحكية آنذاك في المغرب العربي. ولم تقتصر على كونها وسيلة للتواصل بل أصبحت مادة لأكثر من صنف أدبي كالأمثال والزّجل الذي اشتهر به شيخ الزجّالين الأندلسيين ابن قزمان (1078.1160). وقد ذكر ابن خلدون أن ابن قزمان هو من أبدع فن الزّجل، غير أن مؤلفين آخرين يرون أن الزّجل كان معروفاً قبله، الّا أن ابن قزمان تفوق فيه وأبدع أيّما إبداع. واعتبر الكثيرون هذا المؤلف جسراً بين الشرق والغرب.

والزجل شعر شعبي عامي كان يكتب ليغنّى وهو يشبه في تركيبه الموشحة التي تُكتب بالفصحى. ويشتمل الزجل على المطالع والأبيات والأقفال والخرجات وتتخلله كذلك ألفاظ أعجمية من الرومانسية. وبكلمة أخرى فإن الزجل موشحة ولكن باللهجة العامية.

وقد أبدع ابن قزمان في الزجل خلال فترة المرابطين. وفيما يلي جزء من أحد أزجاله:

«ما دامت الدّنيا عِزّك يدوم

وأنتم أهل الجاه وأهلُ العُلوم

وهُم كبارُ الناس مثل النجوم

وهم بنو حمدين مثل البُدور

نَحفَظ أنا زَجْلَك ونَنْشدو

ونَجعل الحاسد أنْ يحسدُ

وَنَشْتُم أيما كان مَعَكْ عَدُ

الق الله فيْ راس ضربة شُقور» (كورينتي، 1980: 20)

ويرى الكثير من الباحثين العرب والأوروبيين أن الزجل قد أثّر في الشعر الأوروبي «المعروف بالبروفنسي الذي كان ينشده شعراء التروبادور المتجولون في إسبانيا وجنوب فرنسا وإيطاليا. وقد يكون ذلك عن طريق المستعربين الذين نقلوا بدورهم حضارة العرب إلى شمال إسبانيا وأوروبا. وقد بنيت أغاني التروبادور على أساس الموشحات والأزجال» (طويل، 1991: 189).

أما الموشحة التي تكتب بالعربية الفصحى وهي من إبداع الأندلسيين أيضاً مثل الزجل، فيسمى آخر قفل فيها بالخرجة. والخرجات تكون بالفصحى أو العامية الأندلسية أو الأعجمية الرومانسية. وربما تكون خليطاً من هذه اللغات. وقد اشتهر الكثير من شعراء الأندلس بكتابة الموشحات مثل عبادة بن ماء السماء (ت. 1030) وأبو بكر بن زهر (1072 .1162) والأعمى التطيلي (1092 .1130).

ومواضيع الموشحات متنوعة، غير أن الحب يفوق كل الشؤون الأخرى التي يعالجها هذا الصنف من الشعر. ولا تخلو طبعاً من ذكر اللقاء والفراق والمدح للتكسب وحتى الشكوى من الزمان. وقد يكون التطيلي أبرز من صوّر كل تلك المشاعر في موشحاته. واشتهرت من بينها واحدة يقول فيها: (El Ciego de Tudela, 2001: 20):

«ضاحك عن جمان سافِرٌ عن بدرِ

ضاق عنه الزمان وحواه صدري»

ويستمر التطيلي في موشحته لينتهي إلى الخرجة التي تقول:

«قد رأيتكْ عيان ليسَ عليكَ ستدري

سيطول الزمانْ وستنسى ذكري»

وهذه الخرجة كتبها بالفصحى، في حين أنه أنهى موشحة أخرى بالعامية وهي:

«من كان دعاني يا قوم وش كان ادّاني

اش كان دهاني نبدّل حبيبي بثانِ»

وثالثة يرصعها بكلمات رومانسية فيقول:

«يا مطرمي الرحيمة أرّاي ذي منيانهْ

بُونْ أبو الحجّاجْ لَفاجِ ذي مَطرانهْ».

ويقصد بذلك: يا أمي الرحيمة، عندما ينفلق الفجر، ليأتِ أبو الحجاج مع خيوط نور الصباح.

ولا ينبغي أن نستغرب هذا الاختلاط اللغوي والذي هو ثمرة للاختلاط

الاجتماعي والثقافي. وفي هذا الصدد يقول المستشرق الإسباني خوان بيرنيت: «لقد أعطى الإسلام للسكان المحليين حكماً ذاتياً واسعاً، وفرض عليهم ضرائب أقل بكثير مما كانوا يدفعونه قبل الإسلام» (Vernet, 1978: 24)

وأسلم الكثير من السكان المحليين، وشكّل هؤلاء النسبة الكبرى بين مسلمي الأندلس، وأصبحوا يُعرفون بالمسالمة أو بالمولدين. وحافظ هؤلاء المسلمون الجدد على بعض التقاليد المحلية الموروثة فكانوا يتخاطبون بلغتهم الأعجمية، رغم تعربهم مع مرور الزمن لغة وثقافة. أما السكان الذين ظلوا على ديانتهم المسيحية فقد عرفوا بالمستعربين والذين بدورهم تعلموا العربية وتأثروا بثقافتها.

«أما العرب بفرعيهما الكبيرين القحطاني والعدناني من الذين شاركوا في الفتح فقد دخلوا الأندلس جنداً وتزوجوا من الأندلسيات، فنشأ في الأندلس مع مرور الزمن جيل عربي جديد يتلقى التأثيرات من جهتين، الأم والأب. وليس مستغرباً أن تكون الأعجمية، اللهجة المتحدرة من اللغة اللاتينية مألوفة من قبل الأندلسيين جميعاً عرباً وغير عرب، مسلمين ومن ديانات أخرى» (شنوان، 1996: 478)

في حين أن المسلمين البربر دخلوا غالباً مع أسرهم لقرب ديارهم من الأندلس، وكان مستوى تعربهم كبيراً، خاصة في الميدان العلمي والثقافي إلى جانب استمرارهم بالتحدث بلهجاتهم البربرية. وهم أتقنوا أيضاً الأعجمية مثل بقية الأندلسيين.

يمكن القول إذن إن اللهجات المختلفة: العامية الأندلسية والأعجمية واللهجات البربرية قد تعايشت بصفتها وسائل للتواصل بين الناس إلى جانب العربية الفصحى التي كانت لغة العلم والثقافة.

وعُرفت بصفتها مراكز للعلم والثقافة مدن أندلسية كثيرة منها قرطبة

وإشبيلية وطليطلة وسرقسطة وغرناطة ومالقة والمرية. لكن مدارس تعليم الصغار لم تقتصر على تلك المدن لأنها كانت منتشرة أيضا في القرى الصغيرة والبلدات. كان الآباء يتكفلون بدفع أجور المعلم ليدرسهم مختلف العلوم وخاصة ما يتعلق بالقرآن وسلامة قراءته. ونقلاً عن العالم ابن عربي المورسي (1165. 1240) يؤكد المؤرخ الكبير ابن خلدون (1332. 1406) أن «مناهج التعليم التي كانت متبعة في الأندلس على عهد ملوك الطوائف والمرابطين كانت ترمي إلى دراسة شيء من الشعر والحساب وقواعد النحو قبل التعرض لقراءة وحفظ القرآن» (Arié, 1984: 359)

ويعني هذا أن دارسي العربية كان عليهم أن يتسلحوا جيداً بعلوم اللغة قبل تناول النصوص الدينية التي تحتاج إلى دراية كبيرة باللغة ومعرفة بأدق تفاصيلها.

وكان أمراء وخلفاء الأندلس من العرب المسلمين مثالاً يحتذى في الاهتمام بالعلم والمعرفة. اهتم هؤلاء بتعليم أولادهم وتكوينهم على أيدي خيرة العلماء والمدرسين.

وأول من أدخل كتب النحو والصرف المشرقية هو النحوي العراقي أبو علي القالي صاحب «كتاب الأمالي» والذي وصل إلى قرطبة عام 941 بعد مروره بمدينة القيروان. وقام هذا العالم بتربية وتعليم الأمير وولي العهد الحكم ابن الخليفة عبد الرحمن الثالث. عمل القالي في التدريس بقرطبة لأكثر من عشرين عاماً. وبرز من بين تلامذته علماء مثل المؤرخ ابن القوطية (ت 977) وأبو بكر الزبيدي (ت 989) واللذين تكفلا بتربية الأمير هشام.

وفيما يتعلق بالأدب في الأندلس فإن بداياته غامضة إلى حد ما. بدأت في القرن التاسع بعض المؤلفات الشرقية في الانتشار ولم تظهر تآليف أندلسية تتسم بالنضج حتى القرن العاشر. ويحضرنا في هذا الباب كتاب «العقد الفريد» للقرطبي ابن عبد ربّه (860. 940) الذي سار فيه على نهج الأدباء الموسوعيين المشارقة مثل الجاحظ. ويضم «العقد الفريد» خمسة

وعشرين كتاباً وضع المؤلف لكل كتاب اسم جوهرة. يروي فيه المؤلف أخباراً من التاريخ والعلوم والآداب شعراً ونثراً. فعلى الرغم من أن كاتبه أندلسيّ فإنّ جزءاً مهماً من مؤلفه يتحدث عن المشرق. وعندما اطلع عليه الصاحب بن عباد (938. 995) قال «هذه بضاعتنا ردّت إلينا».

وتأثر بعلماء وأدباء المشرق أديب أندلسي آخر هو أبو بكر الطرطوشي (1059. 1126) الذي ألّف كتاب «سراج الملوك». وكان طغيان الأفضل الجمالي (1066. 1121) باعثاً له على تأليف هذا الكتاب في «وعظ الملوك والحكام، وبيان ما ينبغي أن يأخذوا به أنفسهم من العدل الذي لا تصلح حياة الرعية بدونه، والسياسة الرشيدة الجامعة لمصالحها التي لا تستقيم حياتها بدونها سواء في تدبير الملك والحكم ونظامهما وقواعدهما السديدة في تدوين الدواوين ومعاملة الجند وفرض الأرزاق أو الرواتب وسيرة الولاة والحكام وجباية الأموال...»[2]

ومن أكثر الكتّاب الأندلسيين شهرة، ابن حزم (994. 1064) صاحب «طوق الحمامة». ويعد هذا الكتاب أصيلاً في بابه وفي موضوعه ولم يسبقه سوى «كتاب الزهرة» لابن داود (868. 909) ناقش فيه قضية الحب ومفهوم العشق لدى العرب. وحسب الكثير من الدارسين فإن «طوق الحمامة» قد أثر في العديد من الكتّاب في شبه الجزيرة الإيبيرية مثل خوان رويث قسيس هيتا (1283. 1351) في كتابه «الحب المحمود». ويبدو ذلك التأثير في «تناوله لموضوع الحب وتأثيراته وفي استعمال المعلومات الخاصة بالسير والنوادر. وقام بعض المستعربين بمقاربة العملين واستخراج وجوه الشبه بينهما مثل أميريكو كاسترو وإميليو غارثيا غوميث. (Chejne, 1993: 230)

لهجة المستعرَبين

أطلقت كلمة المستعرَبين على السكان الأصليين المتحدثين باللغات

(2) من تقديم سراج الملوك الذي كتبه شوقي ضيف، ص 6.

الرومانسية من الذين كانوا يقيمون في الأقاليم التي يحكمها العرب المسلمون بعد عام 711م. وهؤلاء السكان الذين كان أغلبهم يدين بالديانة المسيحية حافظوا إلى حد كبير على لغاتهم الأصلية الرومانسية والتي سميت فيما بعد بـ Mozárabe أي لغة أو لهجة المستعرَبين والتي استمر التحدث بها وكتابتها بالحروف العربية حتى نهاية القرن الحادي عشر. وكانت أيضاً تستخدم من قبل المولّدين، وهم الذين أسلموا من سكان الأندلس الأصليين. وحتى العرب المسلمون كانوا يستخدمونها ولو بدرجة أقل.

وما زال حتى يومنا هذا ما يقرب من ألفي عائلة تنحدر من هؤلاء المستعرَبين القدماء يقيمون في مختلف المدن الإسبانية وخاصة في مدينة طليطلة. وما زال الكثير منهم محافظاً على العديد من التقاليد والعادات والطقوس الدينية التي يمارسونها في المناسبات الخاصة. وبعد طرد العرب المسلمين من تلك المدينة سنة 1085 بقيادة الملك ألفونسو السادس طالبت كنيسة روما بإلغاء الطقوس الدينية للمستعربين والتي كانت تمارس في ست كنائس مختلفة بهذه المدينة. غير أن المستعربين تمسكوا بتراثهم ذاك مما اضطر كنيسة روما بقبول اختيارهم. وقد تمتعت جالية المستعربين بطليطلة بميزات مدنية كبيرة منها استقلاليتهم الجزئية بأن كان لديهم قادة وإداريون سواء خلال وجود العرب المسلمين أو بعد إخراجهم من طليطلة. وإلى جانب الطقوس الدينية الخاصة، كانت لهم موسيقاهم وفنونهم.

ولم تقتصر أماكن تواجد المستعربين على طليطلة لكونهم كانوا منتشرين في مدن مهمة أخرى. ففي مدينة سرقسطة كان هناك عدد كبير منهم وكان لديهم حيّ خاص بهم. وكانوا متواجدين أيضاً في مدن أخرى مثل بلنسية وقرطبة.

ومفردات هذه اللهجة، بالإضافة إلى استخدامها كما مرّ في الموشحات والأزجال، ورد الكثير منها في مؤلفات علمية ككتب الطب والبيطرة

والصيدلة في الأندلس. استخدمها الطبيب القرطبي ابن جلجل (ت 994) والتونسي ابن الجزار (898 . 980) وابن وافد من طليطلة (997 . 1074) والطبيب ابن جناح (990 . 1050) من سرقسطة والذي كان يدين بالديانة اليهودية. وكذا ابن البيطار (1197 . 1248) الصيدلي والعالم النباتي.

الأعجمية

يمكن أن نعرّف الأعجمية المسماة بـ Aljamiado بكونها اللغة الإسبانية التي كان يتحدث بها العرب المسلمون ومنهم الموريسكيون. وتشكل النصوص الأدبية المكتوبة بالأعجمية الموريسكية المؤرخة في نهاية القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر وثائق مهمة تبين ازدهار وانتشار هذه اللهجة بين طبقة من سكان الأندلس. والأعجمية لغة رومانسية مكتوبة بحروف عربية. تشتمل على مفردات عربية وإسبانية وتتضمن الكثير من الاقتباسات القرآنية. وتميزت بكونها لغة شعبية بها الكثير من الأخطاء الإملائية والنحوية وكانت تستخدم مفردات مهجورة إلى حد كبير. وفي رأي عدد من الباحثين فإن الكثير من تلك المفردات المهجورة تم الحفاظ عليها بفضل الموريسكيين الذين استخدموها في نصوصهم. ودراسة الأعجمية تمنح الفرصة للدارسين للتعرف على الجانب المعجمي لهذه اللهجة بالإضافة إلى الوقوف على التأثيرات التي تركتها اللغة العربية في اللغة والأدب الإسبانيين.

وعندما استعاد الملوك الكاثوليك مدينة غرناطة وأزاحوا الملك النّصري عن الحكم تم التوقيع على معاهدة بتاريخ 25 نوفمبر/تشرين الثاني 1491 يلتزم فيها الحكّام الجدد بالسماح للمسلمين ممارسة طقوسهم الدينية ولغتهم، غير أنهم لم يلتزموا بها في الواقع. ففي نهاية القرن الخامس عشر قام الكاردينال خيمينيث ثسنيروس (1436 . 1517) والذي كان مقره بمدينة طليطلة بإجبار السكان المدجّنين والموريسكيين على ترك ديانتهم الإسلامية واعتناق المسيحية. غير أنهم تمردوا على هذا القرار ولجأوا إلى حي البائسين المحاذي لجبل غرناطة وإلى منطقة البوخاراس القريبة من المدينة. وفي بداية القرن السادس عشر أمر الكاردينال بتنصير المسلمين بالقوة. هذا علماً بأن رجل الدين هذا كان عضوا بارزا في محاكم التفتيش الإسبانية الرهيبة والتي مارست كل أنواع القتل والتعذيب والحرق ضد غير المسيحيين. وتكررت حالة غرناطة في مدن وأقاليم أخرى من شبه الجزيرة الإيبيرية ومملكة قشتالة، «ففي السابع عشر من فبراير 1502 صدر أمر جديد يخيّر المدجّنين بين اعتناق المسيحية أو الهجرة. وفي اقليم أراغون، وبلنسية وقع ذلك في عام 1526. ظهر بعد هذا التاريخ اسم الموريسكيين والذي كان يضم مجاميع مختلفة من أصول متشابهة لكنها كانت مختلفة في ظروفها الاجتماعية والدينية» (Gómez, 2000: 73)

والموريسكيون اعتنقوا الدين المسيحي ظاهرياً لكنهم استمروا مسلمين قلباً واعتقاداً وسلوكاً ومارسوا الطقوس الإسلامية في سرّهم وفي ساعات خلوتهم، متمسكين بفكرة التقيّة التي أباحها لهم فقهاؤهم لتفادي الضغوط التي كانت مسلطة عليهم من قبل السلطات الدينية المسيحية. وكانت تلك السلطات تشك في ولائهم للدين الجديد وتراقبهم عن كثب لمعرفة ايمانهم الحقيقي. وقد أدت تلك الظروف إلى أن ينسى هؤلاء جزءاً من اعتقاداتهم وطقوسهم وأصبحت ثقافتهم أقل ثراء مما كانت عليه. وكانوا أيضاً عرضة للرقابة الدائمة فوجدوا أنفسهم مضطرين على تسليم كتبهم وترك أبواب دورهم مشرعة وخاصة أيام الجمعة كي لا يؤدوا صلاة الجماعة سرّاً. تخلوا كذلك عن عادة الاغتسال في الحمّامات ومُنعوا من استعمال لغتهم وأُجبروا على ارتداء الزيّ الذي كان يرتديه المسيحيون. لم يكن أيضاً مسموحاً لهم صيام رمضان، وبالتالي كان الهدف هو القضاء على هويتهم الخاصة. لذا يمكن القول إن الأعجمية تشكل التقاءً عضوياً بين اللغتين الرومانسية والعربية، الرومانسية في ثرائها القديم وتراكيبها المهجورة، والعربية في تراجعها وتدهور مستواها. وتعود النصوص المكتوبة بالأعجمية إلى المسلمين الأواخر في شبه الجزيرة الإيبيرية، وهي

مكتوبة بخط اليد وتم إخفاؤها خوفاً من الرقابة في الكهوف والسقوف وشقوق الجدران. وبعد طرد الموريسكيين من هذه البلاد بقيت نصوصهم مخفية في أماكنها لقرون طويلة، وجرى أول اكتشاف مهم لتلك النصوص في بلدة بإقليم سرقسطة تلتها اكتشافات جديدة في مناطق متعددة من تراب الأندلس مثل بلنسية وغرناطة.

ونتيجة لذلك الاختلاط بين اللغات وكتابتها فقد برزت جملة من الاحتمالات بخصوص ذلك حسب مستوى المعرفة بلغة أو بأخرى وهي: اللغة العربية مكتوبة بحروف عربية، الرومانسية المكتوبة بحروف عربية (الأعجمية)، الرومانسية المكتوبة بحروف لاتينية، والعربية المكتوبة بحروف لاتينية.

أما فيما يخص استخدام الموريسكيين للحروف العربية في كتابة الأعجمية فهناك الكثير من الآراء التي تفسر هذه الظاهرة الاستثنائية. هناك من يعتقد بأن هؤلاء الموريسكيين كانوا يجهلون الحروف اللاتينية على الرغم من معرفتهم باللغات الأعجمية. وهناك من يظن بأنهم تمسكوا بتلك الحروف لكونها تجمعهم بنظائرهم المسلمين ولكونها حروف القرآن، وعليه فإن ذلك الأمر يدخل في محاولة الحفاظ على الهوية. وهناك من يعزو تلك الكتابة إلى محاولة الموريسكيين إخفاء مضامين نصوصهم وجعلها غير مفهومة بالنسبة للرقابة الدينية والسياسية والتي كان أصحابها في العموم يجهلون الكتابة العربية. ولا بد من الإشارة إلى أن هذه الظاهرة ليست مقتصرة على الأعجمية لأن من المعروف أن لغات أخرى قبلها سارت على نفس النهج مثل الفارسية والأردو والسواحيلية وغيرها.

وتصور الكتابات بهذه اللغة مراحل وتاريخ زوال الموريسكيين من هذه الجزيرة. ولم يكن هؤلاء مجرد طبقة من العمال والفلاحين والصناع التقليديين فقط، بل كان من بينهم عدد لا بأس به من المتعلمين والمثقفين. وعلى الرغم من أن محاكم التفتيش قد دمرت الكثير من آثار الموريسكيين

الأدبية، فما زالت محفوظة إلى يومنا هذا أكثر من مئتي مخطوطة. تتناول تلك النصوص مواضيع شتى منها الدينية والقانونية والأدبية الروائية والشعرية. وتشتمل أيضاً على الكثير من الوثائق القانونية الخاصة بالتجارة أو البيع والشراء، بالإضافة إلى موضوعات أخرى مثل الرحلات أو النثر التعليمي. ولم تخلُ تلك الكتابات وخاصة في المرحلة الأخيرة من وجود الموريسكيين في الأندلس من مضامين خرافية وسحر وأدعية وغيرها.

كلمات إسبانية من أصل عربيّ

دخلت الكلمات العربية إلى اللغة الإسبانية في مختلف الميادين الحياتية والمعيشية حيث شملت أسماء الأشجار والنباتات والفواكه والخضر والأطعمة والحيوانات والطيور والأثاث والأوزان والقياسات والحساب وأدوات الموسيقى وموادّ البناء والمناصب والألقاب، وكذا الألعاب وقضايا السقي والإرواء وخزن المياه والبهارات والملابس وموادّ تصنيعها والألوان وفنون الحرب والطعام والشراب والزراعة والأفرشة والأشكال والفنون والصناعات اليدوية. كذلك دخلت في ميدان الطبّ والجبر والفلسفة، فضلاً عن بعض التعبيرات والجمل المعادة من قبل الناس مثل Ojalá أي «إن شاء الله» وLelili أي «لا إله إلا الله».

ولو أردنا أن نعطي بعض الأمثلة، لوجدنا كلمات مثل:

Albahaca, aceituna, acelga, acemete, acitara, adalid, adobe, aduana, ajabeba, ajonjolí, alhacena, alacrán, alazán, albañil, albarda, albitana, albudeca, algodón, alcazuz, alcohol, alfalfa, alficoz, alfil, alfóstigo, algara, algarroba, Algeciras, alhandal, almimbar, almuédano, alquería, altair, altramuz, anoria, ,alharma laúd, tambor, atahona, ataracea, ataurique, azarote, zoco, azulejo,

bellota, cabila, fonda, hachís, jabalí, metical, mudéjar, noria, quintal, quilate, rabel, sacre, sultán, tamarindo, ulema, zarco, Alhambra, zalbazorta, zéjel, zumaque.

وهي تعني على التوالي:

الحبق، الزيتونة، السلق، السميد، الستارة، الدليل، الطوب، الديوان، الشبّابة، الجلجلان، الخزانة، العقرب، الحصان، البنّاء، البردعة، البطانة، البطيخة، القطن، الكازوز، الكحل، الحلفاء، الفقّوس، الفيل، الفستق، المنبر، الغارة، الخروبة، الجزيرة، الحنظل، الحرمل، المؤذن، القرية، الطائر، الترمس، الناعورة، العود، الطنبور، الطاحونة، الترصيع، التوريق، عنزروت، سوق، الزليج، بلوط، قبيلة، فندق، حشيش، جبليّ، مثقال، مدجّن، ناعورة، قنطار، قيراط، رباب، صقر، سلطان، تمر هند، علماء، زرقاء، الحمراء، صاحب الشرطة، زجل، سمّاق.

أسماء الأماكن (Calvo Baeza, 1990)

لا تقتصر فائدة معرفة الأصل العربي لبعض أسماء الأماكن باللغة الإسبانية على تقصي أصول الكثير من الكلمات الإسبانية من حيث التكوين اللغوي (النحويّ والصرفيّ)، بل تمتد لتشمل الطابع الثقافي والتاريخي الذي تتضمنه تلك المفردات التي اختلطت باللغة الإسبانية لتصبح جزءاً لا ينفصم عنها بكل ما فيها من إيحاءات وإشارات ودلائل ورموز. ومن المعلوم أن بعض أسماء الأماكن هي مركبة من اسمين، أحدهما عربيّ والآخر من أصل لاتيني، كما هو الحال مع Guadalupe المكونة من Guada «وادي» العربية وLupe" «التي تعني «الذئب»، فيكون معناها الكامل «وادي الذئب». (Zanón,1990) أو اسم Peñalcázar المركبة من كلمة "peña" اللاتينية التي تعني «صخرة» وalcázar" «العربية التي تعني «القصر». وكلمة "Rambla" «رملة» من الرمل تشكل الجزء الأول من الكثير من أسماء الأماكن مثل "Rambla Alta" أي «الرملة العالية» في ألكوي بأليكانتي.

ومن أسماء تلك الأماكن:

Alaquas الأقواس في بلنسية

Albayda البيضاء في أليكانتي

Alarave العربيّ في مرسية

Albalat البلاط في كاستيون

Alboraya البريج في بلنسية

Albacete البسيط اسم إقليم البسيط

Alcorucén الخروجين في قرطبة

Alcublas القِبلة في بلنسية

Alfejar الحجار في طليطلة

Algara الغارة في أوبيدو

Aljafería الجعفريّة في سرقسطة

Almásera المعصرة في بلنسية

Almudena المُدينة في مدريد

Altalaya الطليعة في بداخوث وبرشلونة

Azagra الصخرة في نافار

Benimaclet بني مخلد في بلنسية

Benitaher بني طاهر في أليكانتي

Benisalem بني سالم في جزر الباليار

Benijófar بني جوهر في أليكانتي

Alcalá de Henares قلعة هنارس بمدريد

Alcántara القنطرة في كاثيريس

Cacin قاسم في غرناطة

Charquía شرقيّة في بلنسية

Cid سيّد في أبلا

Dalías دالية في ألمرية

Fabara فوّارة في سرقسطة وويلبا

Ganame غنم في ثمورا

Huelma وليمة في جيّان

Medina Azahara مدينة الزهراء في قرطبة

Medina Sidonia مدينة ابن سليم في قادس

Medinaceli مدينة سالم في بلد الوليد

Sacra صخرة في بلنسية

Taiba طيّبة في غرناطة

Valladolid بلد الوليد اسم إقليم بلد الوليد

Zael ساحل في بورغوس

Zambra زمرة في قرطبة

أسماء الأنهر والوديان

تنتشر على خريطة شبه الجزيرة الإيبيرية الكثير من الأنهر والوديان التي اكتسبت أسماء عربية أو أنها عرفت بأسماء مركّبة نصفها عربيّ والنصف الآخر لاتيني. فالعديد من تلك الأنهار تبدأ بسابقة (واد) العربية، وهذه هي الكلمة المستعملة في شمال أفريقيا في تسمية النهر. وتتغير وتختلف صورة هذه الكلمة مكتوبة بالأحرف اللاتينية، ورغم ذلك، فإنها لا تبتعد عن الأصل العربي.

وفي ما يلي بعض من أسماء تلك الأنهر:

Guadalaviar وادي الأبيار

Guadalquivir الوادي الكبير

Guadalimar الوادي الأحمر

Guadiamar وادي عنبر

Guatal Ahuze وادي الأوس

Huatiaron وادي هارون

الألقاب (Calvo Baeza, 1990)

دخلت كذلك إلى اللغة الإسبانية الكثير من الألقاب العربية بفعل الاختلاط والتزاوج، وأصبحت تلك الألقاب متداولة في مجتمعات شبه الجزيرة الإيبيرية واستمرت حتى يومنا هذا. وعلى الرغم من التحوّر والتغيير والتشويه الذي أصابها تمكّن الباحثون من التعرّف على أصولها ومعرفة تركيبها. وهناك المئات من تلك الألقاب التي لا يتصور الكثيرون أنها تعود إلى أسماء عربية وإسلاميّة بعد مرور كلّ هذه القرون. وندوّن هنا بعضاً من تلك الألقاب:

Abdal عبد الله

Abas عبّاس

Abolafia أبو العافية

Acin حسن

Alache الحاج

Albarca البركة

Alcaraz الكرز

Alcoba القبّة

Alférez الفارس

Alma الماء

Almenar المنار

Almohalla المحلّة

Baar بحّار

Benacet بن زيد

Borja برج

Cabessa خبّاز

Casin قاسم

Cid سيّد

Dalia دالية

Eza عيسى

Fabera فوّارة

Farfan فرحان

Gabali جبليّ

Garballo غربال

Halifa خليفة

Jarque شرق

Larich العريش

Marja مرج

Nazari نصريّ

Nuza نزهة

Rabelo رباب

Ruzafa رصافة

Sale صالح

Taibo طيّب

Xarc شرق

Zaar زهرة

Zofra صفرة

كلمات منوّعة

يوجد عدد من الكلمات الإسبانية من أصل عربيّ ارتبطت بشخصية تاريخية أو بحدث مهمّ أو بأحد المعالم الأثرية، والتي تم تكرارها واستعمالها ربما أكثر من غيرها. فاسم El Cid «السيّد» أطلق على «رودريغو ديّاث» الذي عرف في ما بعد بـ «الكامبيادور» أي المحارب. وقد ولد في إحدى قرى برغوس بشمال إسبانيا سنة 1043. قام أولاً بالتحالف مع العرب المسلمين ضد ملوك قشتالة، ولهذا أطلق عليه لقب «السيّد». غير أنّه سرعان ما انقلب عليهم وانضم إلى قوات الملك ألفونسو السادس. وفي عام 1094 تمكّن من طرد العرب المسلمين من مدينة بلنسية. وقد كُتبت مآثر «السيّد» في قصيدة طويلة تكاد تكون ملحمة، تتحدث عن بطولاته وشجاعته. ومؤلف هذه القصيدة مجهول.

ومن تلك الكلمات أيضاً اسم قصور الحمراء المعروفة بـ Alhambra والتي تم بناؤها في منتصف القرن الثالث عشر. ويعود اسمها حسب المختصين إلى لون الأبنية والجدران المائل للحمرة. وهناك من يعتقد بأن هذا الاسم يشير إلى «بني الأحمر» من بني نصر، مؤسسي هذه القصور.

ولا ننسى أسماء بعض الفلاسفة والعلماء والكتّاب والتي صارت جزءاً من

الثقافة الإسبانية لارتباطها بثمار المعرفة والعلم التي ورثتها شبه الجزيرة الإيبيرية من العرب المسلمين. وتحضرنا أسماء مثل Avicena ابن سينا، Avirroes ابن رشد، Gazel الغزالي، Ibn Hazm ابن حزم، وغيرهم كثير.

ومن كلمة «المخزن» العربيّة التي دخلت الاسبانية "Almacén" تم اشتقاق عدد من المفردات بهذه اللغة مثل «الخزانة» "Alacena"، كما تمّ أخذ فعل منها وهو "Almacenar" أي «خَزَنَ».

وكلمة Algarabía المنقولة من «العربيّة» لها خصوصيّة فيما يتعلّق بمعناها في اللغة الإسبانية. نحن نعلم أن الكلمة في اللغة الأصلية تعني «الوضوح في الكلام»، بينما نرى أن معناها في اللغة الإسبانية يختلف تماماً عن الأصل، إذ تعني «الفوضى» أو «الكلام غير المفهوم». وعليه فإن الكلمة بعد انتقالها من العربية إلى الإسبانية قد غيّرت معناها تماماً، بل قلبه رأساً على عقب.

ويحصل هذا الأمر مع كلمة Mezquino المأخوذة من كلمة «مسكين». فكلمة «مسكين» لها معنى طيّب قد يثير الشفقة على مَن تُطلق عليه، بينما نجد معناها في الإسبانية مختلف تماماً، حيث تفيد بمعنى «خسّيس»، «حقير»، «دنيء»، «بائس». ومن كلمة «كافر» Cafre وردت صفة الإنسان القاسي أو المتوحش. وفي لعبة الشطرنج التي نقلها العرب أيضاً لشبه الجزيرة الإيبيرية أخذوا عبارة «مات الملك» وهي التي تضع نهاية للعبة، فيقولون: Jaque mate أي «مات الشيخ» بدلاً من «مات الملك».

والغالبية العظمى من المفردات العربية التي دخلت للإسبانية هي أسماء وصفات، لكننا نعثر أيضاً على بعض الأفعال مثل Acicalar أي «صقَل» وHalagar وتعني «خَلَقَ» وTaraceа أي «ترصيع» ومنها جاءت Taracear بمعنى «رصّعَ» وكذا Recamar أي «رَقَّمَ». وهناك حرف جرّ وهو «حتى» الذي صار بالإسبانية Hasta. ويرى بعض الباحثين بأن اللاحقة الحرفية في آخر بعض الكلمات الإسبانية "í" يعود أصلها إلى «ياء» النسب بالعربية. فكلمات مثل: jabalí, carmesí, iraquí, baladí هي على التوالي: جبلي،

قرمزي، عراقي، بلدي.

كلمات نقلتها العربية

دخل إلى اللغة الإسبانية عدد من الكلمات التي تعدّ عربيّة الأصل رغم كونها دخيلة من لغات أخرى وليست عربيّة أصيلة. فكما نعلم فإن الكثير من الكلمات دخلت إلى العربية من لغات أخرى كاليونانية والفارسية. وتعرف تلك الكلمات لدى المختصين بكلمات «عربيّة مزيّفة». ومن تلك الكلمات:

Aduana «الديوان»، وتعني بالإسبانية «الجمرك» و«النقاط الحدودية». وهي كما نعرف فارسيّة الأصل وقد عرفت تطوراً مدهشاً في معانيها. فبعد أن كانت تعني «السّجلّ» صار معناها «مكان اللقاء» ثمّ «الوزارة» ثم «الأعمال الشعرية».

ومن هذه اللغة اقتبست العربية كلمات مثل: Azucena «سوسن» و Jazmín «ياسمين» و Berenjena «باذنجان»، والتي دخلت الإسبانية عن طريق العربيّة.

ومن الهندية اقتبست العربيّة كلمات مثل: «الكافور» و«الشطرنج»، والتي دخلت بدورها اللغة الإسبانية: Alcanfor وAjedrez.

وأخذت العربيّة من اليونانيّة كلمات مثل: «القنطار» و«الترياق»، والتي دخلت أيضاً إلى الإسبانية: Quintal وTiriaca (السيد غنيم، 1990: 23.22)

ومن المثير أن بعض الكلمات التي استعارتها العربيّة من اللاتينية مثل «البرقوق»، قامت العربيّة بنقلها بعد قرون إلى الإسبانية: Albaricoque.

الحروف الشمسية والقمريّة

من الأمور المثيرة للإعجاب أن ظاهرة الحروف الشمسية والقمريّة وجدت صداها في في الكلمات الإسبانية المأخوذة من العربيّة. فالكلمات المبدوءة

بحرف قمري معرفة بأل التعريف دخلت إلى الإسبانية كاملة بما في ذلك أداة التعريف لأنّها تلفظ كاملة بالعربيّة. بينما نجد أن الكلمات التي تبدأ بحرف شمسيّ معرفة بأداة التعريف «أل»، دخلت الإسبانية بدون «اللام» لكونها لا تُلفظ بالعربيّة. وفيما يلي جملة من الكلمات التي تبيّن هذه الظاهرة (Saleh, 2008: 61-62)

الكلمة نكرة	الكلمة معرفة	الكلمة الإسبانية
درب	الدّرب	Adarve
زيتون	الزّيتون	Aceituna
زيت	الزّيت	Aceite
ساقية	السّاقية	Acequia
رزّ	الرّز	Arroz
ريحان	الرّيحان	Arrayán
زعفران	الزّعفران	Azafrán
حصان	الحصان	Alazán
بِركة	البِركة	Alberca
بُحيرة	البُحيرة	Albufera
مَخزن	المخزن	Almacén
فخّاريّ	الفخّاري	Alfarero

الخاتمة

يتبيّن لنا أن كثرة الكلمات الإسبانية ذات الأصول العربيّة أمر بديهي واضح للجميع، وهي تشكل كما هو معروف جزءاً من الرصيد اللغوي والثقافي الذي يتداوله الإسبان في يومنا هذا. ولا تقتصر تلك الكلمات على ميدان معرفيّ محدّد، بل تشمل أغلب المجالات العلمية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية والفنيّة. فقد دخلت عشرات بل مئات الكلمات العربية في تلك الميادين، وأصبحت جزءاً لا ينفصل عن اللغة الإسبانية، بما تحمله من إيحاءات ودلالات.

لقد نجح العرب المسلمون في نقل حضارتهم إلى شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال) بما فيها اللغة العربية التي أصبحت جزءاً مهماً من تراث سكان هذين البلدين، علماً بأن اللغة البرتغالية لا تختلف عن الإسبانية من حيث تأثير العربية فيها. غير أن ذلك بحاجة إلى بحث مفصل آخر. ومعرفة سكان هذين البلدين بأصول الكثير من كلماتهم ذات الاستعمال اليومي يساعدهم على الاطلاع على جزء حيويّ من تاريخهم الخاصّ وثقافتهم من خلال اللغة، ذلك التاريخ المشترك مع الثقافة العربية والإسلامية التي شكّلت اللغة العربية العصب الحيويّ فيها.

المراجع

• بالإسبانية

Ammadi, Mustafa (2005). "Los arabismos y el legado andalusí" en "Los manuscritos árabes en España y Marruecos". Granada: El Legado Andalusí.
Arié, Rachel (1984). "España musulmana (siglos VIII – XV)". Barcelona: Labor.
Calvo Baeza, J.Mª (1990). Nombres de lugar españoles de origen árabe, Darek Nyumba, Madrid.
(1991). Apellidos españoles de origen árabe, Darek Nyumba, Madrid.
El Ciego de Tudela (2001). "Las moaxajas". Navarra (España): Gobierno de Navarra – Departamento de Educación y Cultura.
Corriente, Federico (1996). Hacia una revisión de los arabismos y otras voces con étimo del romance andalusí o lenguas medio-orientales en el Diccionario de la Real Academia Española, Real Academia Española, Madrid.
(1992). "Árabe andalusí y lenguas romances". Madrid: Editorial Mapfre.
(3ª,1984). Gramática árabe. Madrid: Instituto Hispano Árabe de Cultura.
Chejne, A. (1993). Historia de España musulmana, Cátedra, Madrid.
Frías Conde, Xavier (2000). "Algunos paralelismos evolutivos entre el árabe vulgar y las lenguas románicas" en IANUA 1. Madrid: Instituto de Estudios Románicos.
Giol y Soldevilla, A. (1983), Palabras españolas de origen árabe, Darek Nyumba, Madrid.
Gómez Renau, Mar (2000). "La lengua aljamiada y su literatura: una variante islámica del español". En Estudios de Literatura, Nº 25. Valladolid: Universidad de Valladolid.
Saleh, Waleed (2008, 4ª). Curso práctico de lengua árabe I, Ibersaf, Madrid.
Vernet, Juan (1978). "La cultura hispanoárabe en Oriente y Occidente". Barcelona: Ed. Ariel.
Viguera, M. J. (2002). "Lengua árabe y lenguas románicas". Madrid: Revista de Filología Románica, 19, 4554-.
Zanón, J., (1990). Índice analítico de materiales para el estudio de la toponimia hispanoárabe: nómina fluvial de Elías Terés, Escuela de Estudios Árabes, Granada.

• بالعربية

1. شنوان، يونس (1996). «الشعر الأندلسي وشعر التروبادور» في « الأندلس . قرون من التقلبات والعطاءات». الرياض: مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الجزء الرابع.
2. طويل، يوسف (1991). «مدخل إلى الأدب الأندلسي». بيروت: دار الفكر اللبناني.
3. كارم السيد غنيم، ك.، (1990) ، اللغة العربيّة والصحوة العلميّة الحديثة، مكتبة ابن سينا، القاهرة.
4. كورينتي، ف. (1980). «ديوان ابن قزمان. نص ولغة وعروض». مدريد: المعهد الإسباني العربي للثقافة.
مواقع بالإنترنت:
http://dle.rae.es (Consulta: 292016/12/)

اللسان المهاجر.. برج بابل اللغات

الدكتور صلاح بوسريف

(1)

ليست اللُّغة أداةً، ولا هي وسيلة، بل هي وجودٌ، وحياة، وكيَانٌ، أو كينونةٌ بالأحرى. واللُّغةُ هي الإنسان، أو كما يقول هومبولت، فهي «جزء من بنية الإنسان»، هي ما ميَّزَ الإنسانَ عن غيره من الكائنات الأخرى، رغم أنّه «حيوان»، فهو حيوانٌ، لا ينطِقُ فقط، بل يُدَوِّن، ويَكتبُ، ويرغَبُ في التَّواصُل واللّقاء والحوار، والتبادل. قبل التّدوين والكتابة، حَفَرَ في جُدرانِ الكهوف المُعتمة، بَعْضَ رسائله التي كانتْ رُموزاً وإشاراتٍ، كما رسَم، أو جَسّمَ، وكانت هذه هي لغَتُه التي تَهجّاها، وارتَعشتْ بها أصابعُه، وهي تحفر ما في رأسِه، أو خيالِه من أشياء غامضَةٍ، قالَها بهذه الطريقة، لِيَجِدَ، فيما بعد، طُرُقاً أخرى للتّواصل، كان اكتشافُه للحروف الأبجدية، أو الهيروغليفية التي هي ضمن صيرورة مراحل سابِقَة، بدأت مع ما سُمِّيَ بـ«الأمم الخرساء» التي «بدأت تتكلَّم بوساطة الكتابة»، أو الرَّقْم، أي الكتابة و الخَتْم، الرّسوم والرّموز فيها، كانت وسيلَتَه في تدوين أو رَقْشِ ورَقْمِ رسائِلِه، وكانت الكتابة البِكتوغراميّة، إحدى مراحل هذه الصيرورة التي جعلت بعض مَن بحثُوا في تاريخ اللغة، يعتبرون اللغةَ لَم تُخلَق، بل تطوّرتْ، بعكس من يرونها، في بعض الثّقافات، توقيفاً، أو لغة «الفردوس»، كما يُسمّيها موريس أولَندر، كما في الصِّراع العِرْقِيّ الذي كان نشب عند المفكرين الألمان، في القرن الثامن عشر، في المُفاضلة بين العرقين الآريّ والسّاميّ، بربط هذا التَّفوُّق بلسانٍ قوميّ، أزليّ، أصوله فردوسيَّةً، وليست اصْطِلاحاً، أو صَنْعَةً بشريّةً. وهذا سياق آخر، في موضوع اللغة واللسان، ليس هو ما نذهبُ إليه في هذه المقالة

التي فيها اللُّغَةُ، تَحْلِيقٌ في آفَاقَ وذُرى، هي ما توسّعتْ به اللُّغاتُ، تطوّرت، بالتّصادي، والتّنادي، والتَّجَاوُر، والتَّحاوُر مع غيرها من اللُّغات التي، إمَّا حَدَثَ بينها الاتِّصال عبر التِّجارة والتَّبادُل الاقتصادي، أو عبر التّأثير الثّقافيّ، أو بما كان من قُوّةٍ وغَلَبَةٍ لبعض البلاد، أو لبعض الأمم، التي غَزَتْ غيرها من الأراضي والبلاد، وضمَّتْها إلى حضيرتها، أو بما كان لبعض الدّيانات والمُعتقدات، من أثرٍ في النُّفُوس والعُقول، وكان كِتابُها، كما في الإسلام، بين ما أثَّر في لُغاتٍ أخرى، حَرْفاً، وتَعبيراً، وتمثّلاً، أيضاً، ومن أثَرٍ سياسيٍّ أو اقتصاديٍّ، أو ثقافيٍّ.

(2)

رُبّما في هذا السِّياق، بالذَّات، سِياق هجرة الألسُن، أو اللُّغات، رغم كُلّ التَّجاذُبات والتَّقاطُبات التي كانت، وما تزال قائمَة حول المُقَدّس والدّنيويّ في بعض الألْسُن، يمكن أن نَفهم معنى عبارة الشّاعر والمسرحي اليونانيّ أريسطوفان: «بالكلمات [أي باللغة] يغدو العقل كائناً مُجَنّحاً». أي بما تعنيه عبارة «مُجَنّحاً» من تحليقٍ في ذُرى بعيدةٍ، لا نعرفُ ما تكون، وما يمكن أن تتركَه من تأثير، ومن أثَر في مَنْ تُهاجر إليه، تدخُل في لِسانِه، في فِكره ورأيْه، وفي نِظامه التّعبيريّ، أو بنيته الثقافية، أو الذهنيَّة والعقليَّة، والفنِّيّة الجماليّة، التي هي إحدى البنيات التي نتجاهَل دَورَها ووظيفتها في اللغة، وفي تاريخها الجماليّ، أو يُقْبِل هو عليها، رغبةً في المعرفة والاكتشاف، أو اللِّقاء والحِوار، وفَتْح شُرفات أخرى على العالَم. ما يعني أنَّ اللغةَ تحتوي «على أكثر مما يستطيع الإنسان استخدامَه»، وهي «تَخلُقُ شيئاً يفوق قدرة أولئك الذي يستخدمونها». (1)

اللُّغةُ التي تكتفي بذاتِها، تُسَيّج ما فيها من حروف وكلماتٍ وتعابير وتراكيب، أو من نحو وإملاء وبلاغة، ومن مُعجم، ومن صُوَرٍ ومجازاتٍ، تمنع الهواء على هذه اللغة، أو هي لُغَةٌ تَبْقَى بلا سَماء، وبلا أجنحة، وبلا أُفُق، لذلك، فهي تموتُ، أو تضيقُ وتختنِقُ، وتتلاشَى فيها الإضافَة والإبداع، بل لا يبقى

لها كيان، ولا وُجودٌ، رئَتاها النَّفَسُ فيهما يَصْعُبُ، بل يَخْتَلُ، واللُّغاتُ التي مَاتَتْ، هكذا شَرَعَتْ تَمَّحِي، وتنقرضُ، ولا تكون لُغَةً تكفي لشيءٍ، لأنَّها لُغَة بلا نوافذ، وبلا أبواب، والشّمس لا تَصِلُ إليها، كما لا تصل هي إلى الشمس، أو كما يقول ستيفن روجر فيشر، في «تاريخ اللغة»: «غالباً ما تموتُ اللُّغاتُ أكثر من الشّعوب التي تَنطِقُ بها». ولُغَةٌ، بهذا المعنى، هي لُغَةٌ، سياجُها قَبْرُها.

(3)

تَتوهَّم، كتاباتٌ، ودراساتٌ، وأطاريح حول اللغة العربيَّة، مثلاً، أنَّها لُغَةٌ مَيِّتَة، وثمَّةَ من ذهب، في مصر، وفي لبنان، إلى المُطالبة بتغيير الحرف العربيّ بالحرف اللاَّتِينِيّ، بل والعربيّة بالعاميَّة (2)، وكانوا، في الغالب مُتأثّرين بما جرى في تركيا، على عهد مصطفى كمال أتاتورك الذي أزال الحرف العربيّ، واسْتَبْدَلَه بالحرف اللاتينيّ، وَنَسَوْا أنّ في اللغة التركية، نفسِها، الكثير من الكلمات العربيَّة، حتَّى وإنْ تَغيّر الحرف والنّطقُ، ودون أن يُميّزوا بين تاريخٍ، ووُجودٍ، وتُراثٍ، ومساحاتِ استعمال اللغة العربيَّة، والنُّطْقِ والكتابة بها، وتعلُّمِها وتَعْليمِها، وما للحضارة العربيَّة من تاريخ عريق في القِدَم، وبين غيرها من اللُّغاتِ والحضارات، أو الثَّقافات، وامتداداتِها الجغرافيَّة. وكان المُبرِّر، في هذا، هو العلاقة بالغرب، والدُّخُول في السِّياق الغربيّ، لِما كان من تقدُّم، وازدهار، ورخاء، بل ومن استعمار غربيٍّ للبلاد العربيَّة، حينها، وهذا، في حقيقة الأمر، كان جَهْلاً باللِّسان العربيّ، وبما كان له من تأثير، ومن حُضُور في غيره من الألْسُن التي هاجَر إليها، أو تمثَّلَتْ مفرداته، ومفاهيمه، رغم ما قد نَجِدُه في النُّطْق من اختلاف في بعض الحُروف، أو من تحريفٍ لها، لتستقيم في هذا «اللِّسان الأعْجَمِيّ» الذي عِنَدَه في جهازه الصوتيّ، ما لا يستطيع نُطْقَه من حروف، كما كان بين القبائل العربية في اختلاف اللهجات عندها في أمور، بينها، اختلاف هذه اللهجات في الإبدال، وفي الإعراب، وفي أوجه البناء أو البنية، في التَّردُّد بين البناء والإعراب، وفي التَّردُّد بين التصحيح والإعلال، والإتمام والنقص، والإدْغام والفَكّ، وفي

التَّرادُف، وفي تحويل الحُروف، مثل تحويل الياء جيماً إذا وقعت بعد العين، وغيرها مما لم يُخِلّ بالإعراب، كما يقول معروف الرصافي، كون اللغة العربيّة كانت كلها لُغَة مُعْربَة، ولم تكن لُغَة عامية، أو لهجاتٍ لا جامع بينها، أو خاصة بطبقة منهم دون أخرى بلغتنا العامية اليوم. (3)

(4)

ثمَّة معاجِم في عدد من اللُّغات، غير العربيَّة، ونحن نتصفَّحُها، نَجِدُ فيها كلمات، ليستْ غريبةً عن لِساننا، يكفي إعادة تَقويم ما انْحرَفَ، أو ما اخْتُزِلَ فيها من حروف وكلمات، لنُعِيدَ هذه الكلمات إلى أصلها، إلى المكان الذي نَزَحَتْ منه. وفي الفرنسية، مُعاجِم، معروفة، ومُتاحَة، مثل «مُعْجَم الكلمات الفرنسية من أصولٍ عربيَّة» (4). ولعلَّ سارتر أدرك هذا، بشكل جَيِّد، حين اعتبر «اللغَةَ وُجُود الآخرين»، (5) بما يعني أنَّها لا تكون بذاتِها من جهة، وأنَّ الآخر فيها، أو هي فيه، شَرْطٌ من شُروطِ وجودها، وصيرورتها.

(5)

أمَّا إذا ذَهَبْنا إلى اللغة الإسبانية، سواء في ما هو منطوق، وكلام دارجٌ في هذا اللِّسان أو اللُّغَة، أو ما هو مكتوبٌ، ومُتداوَل. فالعربيَّة، حاضِرَة في هذا اللِّسَان، تَطْفُو عليه، لأسباب تاريخيَّة وجغرافيَّة، أو سياسية وثقافية، تدخُل في مِضْمار الغَلَبَة، كما يُسَمِّيها ابنُ خلدون، والشّكيمة، في الجزيرة الإيبيريَّة، التي هي في مرمى بَصَرِنا، لا يفصلها عنَّا، ولا يفصلنا عنها إلاَّ حجابٌ شفيفٌ من ضباب البحر الأبيض المتوسط. وهذا لا يعني ضُعْفَ الإسبانية، أو حاجَتَها الماسَّة إلى العربيّة، للغة ما يكفي من شفافةٍ لتذُوب في الألسُن، في تأثيرها العلمي، وفي تأثيرها الإيقاعِيّ، أو الفَنِّيّ الجماليّ، وفي التَّداوُل، رغم أنَّ الإسبان، اليوم، شرَعُوا بالاكتفاء بإرث الماضي، وبعض المعاجم الحديثة عندَهُم، وُضِعَتْ لـ «حماية» اللُّغَة الإسبانية من «الدَّخِيل»، بنفس منطق

زمن التدوين، في «لسان العرب» الذي وقف عند النصف الثاني من القرن الثاني الهجري لم يتجاوزْهُ، مُكْتَفِياً بلغة البادية، ولم تكن الحواضر تعنيه في شيء، لأنَّ فيها اختلاطاً وهُجْنَة.

كما أنَّ العربيَّة نفسَها، كما كان إبراهيم أنيس في كتابه «الأصوات اللغوية»، أحْصَى عدداً كبيراً من الكلمات التي نعتقد أنَّها عربيَّة، فيما هي كلمات نزَحت من السّريانيَّة، أو تتقاطع، بالأحرى، مع اللغات الساميّة التي هي واحدة منها، ومن الفارسية، ، ومن غيرها من لُغاتِ الجوار التِّجاريّ، والثَّقافي، والحضاريّ، والقرآن وهو ينزل على العرب بلسانهم، كانت فيه هذه الكلمات التي كانت داخِلَةً في سياق التَّداول العامّ عند العرب قبل ظهور الإسلام، ولم يكن لينزل غريباً عنهم، ولا عن لسانهم، وهو يتوخَّى التأثير والفَهْم والإقْناع.

وحين نكتفي أن نبقى في سياق هذا التَّصادِي بين الألْسُن، التَّبادُل الذي جرى فيها، وما كان، وسيبقى من هجراتٍ، وما كان في اللغة الإسبانية من حضُورِ غيرِها فيها، ومن حُضورها هي في غيرها، خصوصاً في شبه الجزيرة الإيبيرية لما يُناهز ثمانية قُرون (711 - 1492م)، فلا بُدَّ أن نتساءل عن هذه الهجرة، في جميع اللُّغات التي لا تَتَوهَّم الصفاء والنَّقاء اللغوي، أو اللِّسانِيّ (6)، وعن أسبابها، كيف تمَّت، في أيّ سياق، وما القنوات التي دخلت بها هذه اللغات في بعضها، أو بعضها كان تأثيره أكثر وأظْهَر على غيرها، وما علاقة هذا التَّبادُل، أو التأثير والأثر، في نحو وتركيب، وفي مجازاتِ هذه اللغة، وفي شِعْرِها ونثرها، وإبداعاتها، وهل كانت إضافَةً، في العقل والخيال، أو الفِكْر والخيال، وفي طبيعة الرؤية التي بها ترى هذه اللغة، والعقل الذي ينطقها ويستعملها، العالَم، كيف تتمثَّلُه، أو تتخيَّلُه، وتُعِيد النَّظر فيه. هل يكفي أن يكون الغزو، أو الفَتْح، أو الاحتلال والاستعمار، هو الوازع في هذا التَّصادي والتَّنادي، ووُلُوج لُغَة في لغة أخرى، كما الليلُ يَلِجُ النَّهارَ، أو النهار يلِجُ الليلَ، أم المسألة تعود برُمَّتها إلى الهيمنة، وما يفرضه المنتصر على المهزوم، سواء بالاحتلال العسكري، أو بالاحتلال التِّجاري والاقتصادي، أو بالهيمنة على الأسواق، وعلى الابتكارات العلمية والتقنية، التي تَبْتَدِعُ

مصطلحاتها ومفاهيمها، وهي اليوم واحدة من هذه القنوات التي تتوسَّع بها اللغات وتكبُر وتنتشر، كما أنها أشَدّ خطراً في التأثير، رغم ما يمكن أن يكون في بعض اللغات من أسلاك شائِكَة تمنع العُبُور والهِجْرَة، كما في الحدود بين الدول المُتجاورة، التي لا تمنع التَّسرُّبات، فيما يُسَمَّى بـ «الهجرة السرية»، كما بين المغرب وإسبانيا مثلاً، وبين تونس وليبيا وإيطاليا، وبين أميركا الجنوبية وأميركا الشمالية؟

وهيمنة اللغة الإنجليزية، اليوم، التي تحتَلُّ الرتبة الأولى في الناطقين بها، وفي استعمالها في الأسواق، وفي الوظائف والمِهَن، وفي وسائل التواصل الاجتماعي، هي هيمنة بالقُوَّة، بِكُلّ أشكالها. وبعدها تأتِي اللغة الإسبانيَّة، ثُمَّ اللغة العربيَّة، والفرنسية تأتي في المرتبة الرابعة، في آخر تقرير عن اللغات الأكثر استعمالاً وانتشاراً. وهذه لُغاتٌ، وخُصوصاً الإسبانيّة التي هي موضوع هذه الندوة، حاضِرَةٌ في السِّياق الاقتصادي والعلمي والتقني، رغم ما للإنجليزية من حُضور كبير وقَوِيّ، ومن انتشار، لكن، السُّؤال الذي علينا التفكير فيه، ضمن مجموع الأسئلة التي تَسْتَدْعِيها هذه الندوة، هو: أيّ هذه اللُغات تقبل الضِّيافَة والاستضافَة، ومفتوحة على الاقتراض، والاستعارة من غيرها من اللُّغات، وما زالت، رغم الهيمنة، تعتبر أنَّ وُجودَ غيرها من اللغات فيها هو إغناء وإثراءٌ وتغذية لها، بما يُضاعِف حُضورَها ووُجودَها، أم هي، تحت وَهْم السَّيطرة والهيمنة، اكْتَفَتْ بما عندها، لا تقبل غيرَها، وهل يمكن مَنْع اللُّغات من هذا العِناق أو الزَّواج الذي هو زَواج في غَفْلَة مِنَّا جميعاً، أم أنَّ السِّياجات، هكذا تبدأ، وهكذا توهَّمَتْها اللغات التي ماتت، أنَّها تحْمِي نفسَها من الغريب والدَّخِيل، لتجد نفسَها تَضْعُف وتَنْطَوِي على ماضيها، ولا مُستقبلَ لها، وهذا سُؤال مطروح على اللغة الإسبانية اليوم أيضاً، في سياق ما ظهر من مُحاولات للاكتفاء في هذه اللغة بما كان؟

(6)

الاقتراض من لُغاتٍ أخرى، لا يعنِي ضُعْف أو قُصُور هذه اللُّغَة، أو تلَوّثها

بغيرها من الألْسُن، بل هو قُوَّتُها، ووُجُودُها خارِجَ السِّياج، أو هي لُغَةٌ مفتوحَةٌ على الإبداع، والإضافَة، والتوسُّع، والابْتِكار، والتَّخْلِيق، والأدب، والفن، والإبداع في عمومه، ومعه التقنية والعِلْم، والتَّرْجَمة، والسَّفَر والتَّرحُّل، والسِّياحة، هذه كُلُّها أسبابُ قُوّة لِلُّغَة التي هي لُغَة أبوابُها مُشْرعَة على التَّطوُّر، والاحتضان. وفي اللغة العربيّة، كانت، دائماً هُناك كوابح، إمَّا نربطها بالدِّين، ونمنعُ ما سمَّيْناه بالدَّخِيل، أو بالصَّفاء، بمعنى الأصل، كما فعل ابن منظور في «لسان العرب»، عِلْماً أنَّ هذه اللغة العظيمة، توسّعتْ بلهجاتِ القبائل، حتَّى وهي تَمِيلُ إلى لُغَة قُريش، وكانت مُرادِفاتُها كثيفة، كثيرة، ووسَّعَتْ تسمية الواحِد بالكثير. ومن الكوابح أيضاً، ما كان عبَّر عنه الشَّاعر معروف الرصافي الذي كان مُراسِلاً لمجمع اللغة العربيَّة بالقاهرة، حينَها، فيما يتعلَّق بِحَصْر الاشْتِقاق في العربيَّة، ورأى أنَّ فيه خسارَةً للعربيَّة من حيث التَّوْلِيد (7) احتجاجاً برأي ابن فارس، الذي سار على ما حدث من موروث، واكتفى بزمن التدوين كلحظة حاسمة في تقعيد الثَّقافة العربية، وحصرها في الزمان والمكان، في قوله: «وليس لنا أن نخترع، ولا أن نقول غير ما قالوه، ولا أن نقيس قياساً لم يَقِسُوه، لأن في ذلك فساد اللغة وبطلان حقائقها». والرصافي في حُجَّتِه، يذهبُ إلى أن الاشتقاق سماعيّ في الجوامد فقط، وذلك لأن الداعي إلى الاشتقاق، إنما هو التغير والتبدل الطارئ في معنى الكلمة، فبسبب ذلك التبدل والتغير يتولد منها لفظ آخر، يتضمن معناها الأصلي مع زيادة طارئة فيه، ولما كانت الجوامد ذات معانٍ ثابتة غير متبادلة ولا متغيرة، لم يكن فيها سبب داعٍ إلى الاشتقاق والتوليد، لما فيها من العقم المحض، بخلاف المصادر وأسماء الأحداث، فإن معانيها متغيرة ولا تستقر على حالة واحدة.

وتطوُّر العربية، كما يقول، كان بطريقتين، إما بالتعريب، وهي الأخذ من لُغات العجم، واختلاط العرب بالعجم من أكبر دواعي الأخذ، فالمعرب هو ما استَعملتْه العَربُ من الألفاظ الموضوعة لمعانٍ في غير لُغَتِها، وقَدْ وُجِد المُعرب في القرآن، كما يقول، وهو ما سبق أن أشرنا إليه عند إبراهيم أنيس، ومنه قَوْلُه «طه واليم والطُّور والربانيون» يُقال إنها بالسريانيَّة،

والصراط والفسطاط والفردوس بالرومية، ومشكاة، وكفلين بالحبشية، وهيت لك يُقال إنَّها بالحورانيَّة، وغيرها كما جاء في الجزء الأول من كتاب «معروف الرصافي.. آثارُه في النقد والأدب». كما أشار الرُّصافِي إلى أنَّ اللغةَ تنمُو وتَكْبُر، بسبب ما سمَّاهُ «المُجاوَرَة والاحتكاك»، وما يكون لَهُما من «تأثير لا يُنْكَر حتَّى أنَّنا إذا نظرنا إلى مفردات اللغة العربيَّة رأيْنا نِصْفَها مأخُوذ من لُغاتٍ أخرى بطريقة التعريب التي هي إحدى طُرُق النُّمُوّ في كُلّ لُغَة».

(7)

وإذن، فنحن أمام لُغةٍ حيَّة، حيويَّة، إلى اليوم، لُغَة كما تُعْطِي تأخُذ، وإن كان حدث فُتُور فيها في العطاء، لما يعرفه العرب اليوم من وَهَنٍ، ومن تَشَتُّتٍ، ومن غياب التأثير، وغياب الابتكار والاختراع العلميين، عِلْماً، أنهم في الأدب، وفي الفِكْر، وفي الفن، جدَّدُوا، ولهُم أشياء عظيمة في هذه المجالات، تحتاج أن نترجمها إلى اللغات مثل الإسبانية، والإنجليزية، والفرنسية، والصينية، وغيرها من اللغات الأخرى، في الوقت الذي نُتَرْجِم فيه نحن جُلَّ اللغات الأخرى إلى العربيَّة، بِكَرَمٍ زائدٍ، في بعض الأحيان، وهذا يجعلنا في موقع من يتلقَّى ولا يُلْقِي، أو من يأخذ ولا يعطي، أو بتعبير روجير فيشر «لطالما اختفت اللغات [وضَعُفَت] لأسباب اقتصادية وثقافية وسياسية ودينية وغيرها» (8)، طبعاً بسبب هذا الأخذ الذي يمنع العطاء ويَكْبَحُه.

وحُضور العربيَّة في هذه اللغات، وبينها الإسبانية خلال مراحل قُوَّة العرب، ووُجودهم في الأندلس، كان، أيضاً، بسبب ما كان عندهم من علوم، وما كان عندهم من طِبّ وهندسة، ومن ابتكارات في مجالات العمارة والمعمار، وفي الرَّيّ والزراعة، وفي الرياضيات والهندسة، وفي الأدب، والفلسفة، أو الفِكْر، أما قُوَّة الانتشار في جغرافيات مختلفة، فهذا من عوامل انتشار اللغة، وتأثيرها في ما تَقْتَحِمُه، أو تُزاحِمُه من لُغاتٍ أخرى. واللغةُ، كما يرى بيكارد، تُكيِّفُ نفسَها بشكل غير محسوس، [وغير مُدْرَك] تقريباً للتغييرات التي تحدُثُ في العقل البشري. (9)

(8)

وإذن، فالأمر، كما نراه، لا يرتبط بِزَهْوِ لُغَة في وجودها في غيرها من اللُّغات، فهذا أمرٌ موجود، وهو بين أهمّ ما تكون به اللغة حيَّة وثَرِيَّة، ومُتدفِّقَةً، وذات قَبُول في غيرها من اللُّغات، في مستوياتها التعبيرية المختلفة، بل بما يكون في اللُّغات المُهاجِرَة، أو المُتَجاوِرَةِ من حياةٍ، ومن ماء، وهذه هي وظيفة اللغة، هي أن تكون بذاتها في غيرها، وفي علاقة مع غيرها بما تُغْنِي وتَغْتَنِي به، وهي تكونُ، في هذا، مثل العُمْلات القابلة للصَّرْف، لا العُمْلات التي تفقد الكثير من دَمِها في صَرْفِها إلى غيرها من العُمْلات الأكثر تَسْوِيقاً ورَواجاً، أو الأكثر حياةً وحيويَّة منها.

ولعلَّ في الهجرة، وفي السَّفَر، وفي تجديد العلوم والمعارف، وفي قُوَّة الصنائع، والتِّجارة والاقتصاد، والسِّياحَة، ما يجعل اللُّغَة المُهاجرة، تتجدَّد، وتتعدَّد، وتتنوَّع، أو كما يقول جان جاك لوسيركل في كتابه «عنف اللغة»: «بوسع اللغة أن تتقبَّل أصعب الشُّروط»، وهي لا تتفاوض أو ترفُض، بل رُبَّما تنتقي، وهي بهذا تتألَّق، وتستمر، أو كما قال الشَّاعِر العربيّ «سافِر تتَجدَّد». كُلّ لُغَةٍ ليست فيها صيرورة، أو لا تُراقِب الصيرورة، هي لُغَة محكوم عليها بالانكماش، أو بالانقراض بالأحرى. واللغة وهي تضْعُف، يضعُف معها الفِكْر والخيال، ويَفْسُدُ فيها التجريد الذي هو أساس الفِكْر، أو العقل، إذا شئنا، كما يَهُونُ فيها الخيال، ويفقد مجازاته التي هي ما يُوسِّع المعاني في اللغة، و«اتِّساع المعنى يُعَدُّ من الرُّقِيّ في اللغة» (9)، كما أنَّ اللغةَ «هي المكان الذي يحدثُ فيه الصُّعُود والسُّقوط دون توقّف، اضطراب هذه الحركة المستمرة مُتَأَصِّلٌ في اللغة». (10)

مصادر وإحالات

(1)ماكس بيكارد، اللغة والإنسان، ترجمة قحطان جاسم، دار الرافدين، لبنان. بيروت 2021 (ص 25)

(2)وقد كان في مصر عبد العزيز فهمي في مجمع اللغة العربية، في القاهرة، طالب سنة 1942 بتغيير الحروف العربية، في اللغة العربية، بالحرف اللاتيني. وفي لبنان، نادى سعيد عقل في خمسينات القرن الماضي، باستبدال اللغة العربية بالعامية اللبنانية، واستبدال الحرف العربي، بالحرف اللاتيني، وهو ما كرَّسَه من خلال دار النشر التي أسسها، في سنة 1967، في ما سمّاه بـ«ثورة اللغة وثورة الحرف»، وهي الدعوة التي وجدنا في المغرب من يدعو إليها مُجدَّداً، ووضَع معجماً بالعامية، وهم من الفرنكوفونيين الذين ينتصرون لفرنسا، وللغرب في عمومه، وقد كان المؤرخ، والمفكر عبد الله العروي، واحِداً من بين الكثيرين ممن تصدَّوا لهذا الطرح، وكنتُ كتبتُ في الموضع عدداً من المقالات، لكشف ما يجري خلف مثل هذه الدعوات من زيف، وتغريبٍ، وجهل باللغة العربيَّة، وبتاريخها، وما فيها من ثراء كبير، في الماضي، كما في الحاضر.

(3) انظر، معروف الرصافي، آثاره في النقد والأدب، جمع وتقديم أ.د. داود سلوم، أ.د عادل كتاب نصيف العزاوي، الأستاذ المحامي عبد الحميد الرشودي، منشورات دار الجمل، 2014 الجزء الأول (ص 49 . 50)

(4) يمكن أن نَعُود إلى الجدل الذي كان أثاره أحد الكوميديين الفرنسيين، ونشَرَتْه جريدة «ليبراسيون»، في سؤاله ما الدَّاعِي لتعلُّم اللغة العربيَّة في المدارس الفرنسية، لتُجِيبَه جريدة «لبيراسيون»، بما معناه، فعلاً، قد يكون لا داعِيَ لتَعلُّم اللغة العربيَّة في المدارس الفرنسية، فقط عليك أن تعلم، أن هُناك بين 600 إلى 700 كلمة عربية [والعدد يفوق هذا] في اللغة الفرنسية التي ننطقها. والكلمات أو المفردات العربية في اللغة الفرنسية تزيد بين 5 إلى 8 أضعاف على كلمات أو مفردات اللغة الغالية التي هي لُغَة الأجداد.

(5) اللغة والإنسان، مصدر سابق (ص 40)

(6) فالاقتراض (اللغويّ) يُشَكِّلُ واحِداً من أعظم نقاط قُوَّة اللغة، فاللغات البشرية ليست حجارةً، بل إسْفَنْجاً. وهذه النوعية (من الاقتراض) تمنحُها إبداعيتها الرَّائِعَة فضلاً عن قدرتها على التكيُّف والبقاء.
انظر، ستيفن روجر فيشر، تاريخ اللغة، ترجمة فايز الجولاني، مشروع كلمة للترجمة بمركز أبو ظبي للغة العربية في دائرة الثقافة والسياحة، أبوظبي 2022 (ص 287)

(7) أثيرت قضايا لغوية كبرى في بدايات القرن الماضي، تمس نظام وبناء اللغة العربية، كما ورثناهما عن «العرب»، لم تجد من يعمل على مناقشتها وبلورتها، في اتجاه تجديد اللغة، وتوسيعها، وهذا له علاقة، جوهرية، بما أثيرُه، هنا، من نقاش حول العلاقة بين الشعر والقصيدة، وبين الشفاهة والكتابة، وبين الأفق والنفق، ومنها عَروض الشعر. وكان الذي أثار إحدى هذه القضايا، ويتعلق الموضوع بـ «الاشتقاق» في اللغة، هو معروف الرصافي، سنة 1918.

يذهب الرصافي إلى أن الاشتقاق سماعيّ في الجوامد فقط، وذلك لأن الداعي إلى الاشتقاق، إنما هو التغير والتبدل الطارئ في معنى الكلمة، فبسبب ذلك التبدل والتغير يتولد منها لفظ آخر، يتضمن معناها الأصلي مع زيادة طارئة فيه.

ولما كانت الجوامد ذات معان ثابتة غير متبدلة ولا متغيرة، لم يكن فيها سبب داع إلى الاشتقاق والتوليد، لما فيها من العقم المحض، بخلاف المصادر وأسماء الأحداث، فإن معانيها متغيرة ولا تستقر على حالة واحدة.

وقد انتبه الرصافي، وهو شاعر، أن جمع اللغة وروايتها، وحصرها وتدوينها، كان له مصدر واحد هو الشعر، وتحديداً شعر البوادي، بل بعض البوادي دون غيرها، ولم يعد الرواة إلى النثر، ما جعل اللغة تضيق، ولا تعرف ما كان مفترضاً من توسع في اشتقاقاتها، مثلاً. وهنا أريد أن أشير إلى رفض «العرب»، رواية شعر أبي دؤاد، وعدي بن زيد العبادي، فقط، لأن ألفاظهما ليست بنجدية، [نسبة إلى نجد] خصوصاً عدي بن زيد، لأنه «كان نصرانياً

من عباد الحيرة، قد قرأ الكتب»!

وهذا يعود بي إلى أن ما وصل إليه الخليل من بحور وأوزان، ووضعه من صيغ صرفية، كظلال للأصوات التي خلفها، على اعتبار أن التفاعيل، لا تعتمد المكتوب، بل المسموع فقط، أو كما يقول ابن عبد ربه، في منظومته العروضية: «من كل ما يبدو على اللسان/ لا كل ما تخطه اليدان»، فهي بحور لم تمثل كل الشعر والشعراء، من جهة، كما أنها اكتفت بالشفاهة، التي هي نظام القصيدة، والمكتوب تم طمسه ومحوه، ناهيك عن العربية التي تم ابتسارها، وحصرها فيما قيل في البوادي، رفضاً للتثاقف والتحاور مع اللغات والثقافات الأخرى. أو ما اعتبروه دخيلاً، واستعملوا القياس، لسد باب التوسع والتوليد، وبالتالي فتح الثقافة العربية على الابتداع، علماً أن القرآن لم ينغلق على العربية وحدها، وفيه ما دفع النحاة، أنفسهم، إلى تبرير اللحن، وتقعيده، رغم أنه لم يُسْمع من العرب.

وفي هذا السياق يقول الرصافي: «ولما توقفت اللغة ولم تجر مع الزمان، ولم تشاركه فيما أحدثه وجدده كل يوم، انجر بها توقفها إلى التأخر عن غيرها من لغات الأمم المستمرة على التقدم في طريق المدنية».

«وأما ما قاله ابن فارس... فليس بشيء، ويا ليت شعري أي فساد يحصل في اللغة إذا قلنا [منفوع] من نفع، وقد صرح أبو حيان أنه لا يقال منفوع، من نفع لأنه غير مسموع؟

وأي فساد يحصل في اللغة إذا قلنا [استحصل] ومن الحصانة أو الحصن [استحصن] ولم أر في كتب اللغة من ذكرهما، لأنهما غير مسموعين؟ بل إنما الفساد كل الفساد، في منع ذلك كله، لأنه بمنعه، يختل القياس، واختلال قياس اللغة في توليد كلماتها أجدر أن يعد من الفساد فيها، وهل في اللغة العربية من حقيقة أكبر من اطراد القياس في مشتقاتها؟

فإذا نحن أبطلنا هذا القياس وقيَّدنا ألسنتنا في كل كلمة من كلماتها

بالسماع، فقد أبطلنا أكبر حقيقة من حقائقها. ففساد وبطلان حقائقها إنما يكون بتقييد أنفسنا بالسماع، لا بجرينا مع القياس، كما زعم ابن فارس. وبهذا يعلم أن ابن فارس ومن ذهب مذهبه، قد وقعوا فيما فروا منه» [والمقصود، هنا، خنق اللغة وإفسادها بتثبيتها في ماضي العرب، دون غيره من أزمنة اللغة، وفي غيرهم من العرب الذين جاؤوا بعدهم. الحقيقة جاءت من الماضين. وكأننا أمام تنزيل آخر]!

(8) تاريخ اللغة، مصدر سابق (298)

(9) نفسه (ص 109)

(10) انظر، معروف الرصافي، آثاره في النقد والأدب، مصدر سابق.

(11) اللغة والإنسان. مصدر سابق (ص 28)

المهجر الأميركي ورحلة اللغات

الدكتور إغناثيو غوتيريث دي تيران

تعدّ حركة المهجريْن الأميركيين الجنوبي والشمالي من الظواهر الفنية الحديثة الأكثر حضوراً ونفوذاً في فضاء الأدب العربي المعاصر، ليس فقط لأن الشعراء العرب الوافدين إلى القارة الأميركية في أواخر القرن التاسع عشر طلباً لسد الرمق أو العلم بلغوا شأناً كبيراً من الإبداع وتجديد الشعر العربي شكلاً ومضموناً، وإنما لأن هذه الحركة تمثل في جوهرها مدّاً حضارياً يتجلّى فيه الواقع الاجتماعي والثقافي لمجموعة متميزة من المبدعين العرب. كما أن هذه الحركة قد أَثْرتْ الأدب العربي المعاصر إثراء لا يمكن نكرانه، وإنْ كان بعض الشعراء المهجريّين كإلياس قنصل قد بادروا إلى الغلو بشأنه والمبالغة في إنجازات قد لا تمتّ بصِلةٍ إلى الواقع الملموس. وقد أبدى قنصل وغيره قدراً فائضاً من العزة والانبهار بشأن المهجر بحيث وضعوا إسهامات المهجرين في مرتبة طليعية تفوق أهميتها مراحل ذهبية أخرى من الأدب العربي، في مقدمتها الحقبة الأندلسية بأسرها. وهو حكم يحتاج، مهما يكن موقفنا الإيجابي من أدب المهجر، إلى الفحص والتدقيق نظراً لما اتسمت به الآداب في الأندلس من تحديث وعطاء وطاقة إبداعية نادرة يصعب مقارنتها مع أي مرحلة أدبية أخرى. على كل حال فمن الإنصاف الإقرار بأن «الأشكال الصياغيّة العديدة التي استخدمها شعراء المهجر، كانت مرحلة جديدة من مراحل التطور الواضحة في موسيقى الشعر العربي (...) وأنها بهذا الاعتبار قد شكلت جانباً مهماً من حركة التجديد الضخمة التي عرفها الشعر العربي على أيديهم» (بلبع، ص. 330).

تتنوع تجارب شعراء المهجر بتنوع انتماءاتهم الاجتماعية ومنابعهم الثقافية، ولا يمكن كذلك أن نغفل توجهاتهم الدينية، وهي عوامل أدّت

دوراً كبيراً في نشوء الحركة وتطورها عبر الأزمنة. ولا يحسن بنا في الوقت ذاته أن نغضّ الطرف عن الفوارق والخصوصيات التي طبعت كل من المهجرين على حدة، مما يضطرنا لاعتبار كلّ واحد منهما، أي المهجر الشمالي في الولايات المتحدة وكندا من جهة، والمهجر الجنوبي بأميركا اللاتينية من جهة أخرى، يمتاز بسمات ذاتية ضمن سياق إبداعي مشترك. إذ إن تعدد الشخصيات والانتماءات والمواقف والمنطلقات للشعراء المنتسبين إلى أحد هذين المهجرين على وجه الخصوص تشكل بدورها عنصراً أساسياً لعملية تحليل واقع التجربة العامة والخاصة في شطري الظاهرة المهجرية. وكلما عكفنا على دراسة النزعات الإبداعية والمواقف الفكرية الصادرة عن هؤلاء الشعراء، ظهرت على السطح هذه الفوارق والتدرجات والتلوّنات، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن ثمة تجارب قد يناقض بعضها البعض الآخر دون أن نفصلها عن سياقها الطبيعي ضمن التيار المهجريّ الواحد. على سبيل المثال وليس الحصر، فإننا نلمس في المهجر الشمالي، وهو الأكثر شهرة وإشعاعاً في زماننا هذا، اختلافات كثيرة في ما يتصل بالعمل الإبداعي والمواقف السياسية والفلسفية المتفق عليها، مما يصعب علينا إطلاق أحكام شاملة تضمهم جميعاً إلى مدرسة متماسكة ذات معالم وقسمات مثبتة. فعلى هذا الأساس، لا يسعنا أن نسلم تسليماً عاماً بأن الرؤية الفنية الإبداعية لجبران خليل جبران، وهو أكثر المهجريين سمعةً وبقاء على الإطلاق، يجب أن تتطابق مع ماهية الإبداع الشعري لدى ميخائيل نعيمة – الذي اجتاز بدوره أطواراً عقائدية وأسلوبية تنم عن أحاسيس متبدلة وصلت إلى التناقض فيما بينها-، فما بالُك بالتباين السياسي والإيديولوجي الذي نلاحظه عند أعضاء المجموعة الأدبية الواحدة.

صحيح أن المهجر الأميركي الشمالي انفرد بنزعة بينة نحو التجديد والابتعاد عن المألوف والنظرة الأدبية «البالية» التي كانت مهيمنة على جزء كبير من الإنتاج الأدبي في الوطن العربي أواخر القرن التاسع عشر وبداية العشرين. ولا يصعب علينا أن نلقى عند المهجريين تيارات تحديثية تشدد على ضرورة

التجديد المطلق والابتعاد كلياً عن تركة أدبية لا تفيدهم بشيء، وقد تصدت لها تيارات أخرى لا تقل عنها حماسة وحمِّية تُبدي قدراً كبيراً من التمسك بالصيغ الشعرية التقليدية.

فيما يتعلق بالمهجر الجنوبي، فإن الاختلافات والتناقضات الفكرية والإيديولوجية القائمة بين أعضائه بلغت قَدراً كبيراً من التفرقة والخصومة. فمن الناحية الإيديولوجية تصادم دعاة القومية العربية الرافضون بشدة لمشاريع الاستعمار الغربي مع أنصار القوميات المحلية (اللبنانية بالمصف الأول) والمتقبلين لنوع من التعاون مع القوى الغربية لإدارة بلادهم. وتتأتى هذه المواقف السياسية في الغالب من منطلقات شخصية أو جماعية تؤمن بالانتماء الملتزم للوطن والتعامل الفعال مع تطلعات مواطنيه، في وجه مجموعات وأشخاص آخرين يميلون إلى الانعزال والنأي بالنفس عن مشاكل بلاد وأوطان لم توفر لهم أي نافعة بل أجبرتهم على الرحيل سعياً للقمة العيش والاستقرار. وكان عدد لا بأس به من شعراء مهجر الجنوب قد تخاصموا مع أترابهم وأندادهم لأسباب سياسية أكثر منها فنية، وقد تلقوا في مواقفهم الملتهبة هذه آذاناً صاغية لدى بعض الرموز في الشمال مثل أمين الريحاني الذي استاء هو الآخر من «لا مبالاة» شركائه في الرابطة القلمية بالولايات المتحدة إزاء ما كان يعصف بالمشرق العربي من مؤامرات تحاك ضد مصالح شعوب المنطقة وآمالها في الاستقلال.

اللغة والتجربة الشعرية

بعيداً عن المماحكات الإيديولوجية، نُلفي في معشر أدباء المهجر الجنوبي ميلاً نحو الخوض في تأملات ونقاشات مجدية حول متطلبات الأداء الشعري. وعلى الرغم من أن دراسات تأسيسية كالتي أفردتها الأستاذة سلمى الخضراء الجيوسي لأدب المهجر وخصوصياته خلصت إلى أن المقومات السياسية أدت دوراً كبيراً في تكوين شخصية المهجر الجنوبي في وجه نظيره الشمالي، إلّا أن الجنوبيين انخرطوا أيضاً في الجدال الدائر في الشطر الشمالي حول

الصيغ التعبيرية والأسلوبية والأشكال الإيقاعية الأكثر مناسبة لتشييد صرح «الشعر الجديد» في بلاد المنفى. فأصبح مبدأ التشبث بالنمط العربي القديم التقليدي أم التخلي عنه بشكل حازم من المبادئ المطروحة باستمرار على بساط الجدال. وانقسم الجنوبيون فيما بينهم حول قضية التحديث مثلما انقسموا على الموضوعات الأيديولوجية الكبرى. وانصرف معظم الشعراء الجنوبيين في آخر المطاف إلى النمط الكلاسيكي، بدءاً بالقصيدة العمودية ونظام التفعيلة والبحور المعتادة، ثم نادوا بالحفاظ على لغة عربية فصيحة تنأى بنفسها عن الإطناب والتكلف. وخليق بنا أن نتذكر بهذا الخصوص الانتقادات اللاذعة التي كالَها عمداء الجنوب إلى ممثلي الرابطة القلمية وقد اتهموهم بالتمادي في تجاربهم الإبداعية المفرطة التي لا يمكن أن يتمخض عنها سوى الفساد اللغوي وانهيار رِفعة الشعر العربي في نظرهم.

بودّنا أن نثير قضية تمسّ الجانب اللغويّ لإنتاج هؤلاء الشعراء العرب الذين حطّ بهم الرحال في ربوع أميركا الجنوبية، وذلك من خلال التوقف عند مرحلتين زمنيتين متتاليتين. ولما كنا مدعوين إلى الحديث عن هجرة اللغات ما بين القارات والأزمنة، والعوامل التي حدت بهذا الروائي أو ذلك الشاعر إلى اتخاذ لغة محددة دون غيرها، فمن المستحسن أن نتوقف عند تجربتي اثنين من أكثر شعراء المهجر الجنوبي شهرة، يمثل أولهما مرحلة النشوء، في حين ينتمي الثاني إلى الطور المتأخر. وقد يساعدنا هذا التناول في الإجابة عن سؤال يمسّ بيت القصيد بالنسبة لنا: لماذا اختار هذا الشاعر أو ذاك التمسك بلغته الأم العربية وهو يبني حياة جديدة له في بلاد نائية غريبة، بينما يميل غيره إلى اتخاذ اللسان المحلي لتحقيق الغرض نفسه؟ وربما يقودنا هذا السؤال إلى مسألة ثانية هي كالآتي: هل يرتهن هذا الاختيار بإنتاج شعري معين ترسمه مقومات اللغة المتخذة وكل ما يحيط بها من عوامل اجتماعية وثقافية وإنسانية؟

وحتى نخوض في الموضوع بقدر أكبر من التفصيل والدقة، نحبّ أن نسأل

يا ترى ما الذي جعل شاعراً مثل إلياس حبيب فرحات، اللبناني الأصل، يتشبث بالعربية وسيلة للتعبير عن ذاته والتواصل مع محيطه البرازيلي؟ وبالمقابل، أي اعتبارات قادت الشاعر التشيلي الفلسطيني محفوظ مصيص إلى ترك العربية منصرفاً إلى الإسبانية، وهو الأديب الذي برع في تشييد عالم مجازي خاص به يتغنى بالإحالات إلى أصوله العربية الشرقية؟ فهل تأثر هذا الاختيار في مدى تمسكهما أو ابتعادهما عن أصولهما العربية التي تتضح في عدد لا يحصى من قصائدهما؟ وقد يعارض معارض صحة هذه المقارنة ووجوبها متحججاً بانعدام الصلة المشتركة بينهما، لأن فرحات ينتسب إلى الرعيل الأول أو الثاني من المهاجرين المشارقة المتوجهين إلى القارة الأميركية وقد وطئها وهو في شبابه بدون أن يكون قد اتصل مسبقاً باللغة البرتغالية المحكية في البرازيل، بينما يحسب مصيص على الرعيل الثالث الذي نشأ في الأراضي الأميركية الجنوبية، تشيلي على وجه التحديد، وقد تعلم الإسبانية في المدرسة. إن مثل هذا الاعتراض مشروع ومنطقي جداً، بيد أننا نعتقد أن مسألة اللغة، وإن بدت إشكالية، تُجسد في حالتيهما عاملاً مصيرياً في نشوء عقيدة أدبية فكرية مشتركة للاثنين. للتذكير فإن مصيص كان يجيد العربية قبل الإسبانية بحكم تعاطيها في المنزل مع عائلته، في حين أقدم فرحات على البرتغالية في مرحلة متقدمة من حياته فأصابها بقدر كبير من الإجادة بل تفاعل تفاعلاً مجدياً مع محيطه الاجتماعي. فنقشت بعض قصائده على تماثيل ومسلات ومعالم تاريخية في ساو باولو مثلما هو الحال مع النصب التذكاري الواقع في حديقة إبرابويرا المعروفة في المدينة، وما زالت الصحف والمجلات البرازيلية تفرد تقارير وأنباء تتعلق بتركته الأدبية بصفته «الشاعر البرازيلي العربي»، كما أن عائلته انخرطت انخراطاً كاملاً في الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مدنية كوريتيبا الواقعة جنوب ساو باولو.

ومع أن إلياس فرحات، أحد أركان المهجر الجنوبي في البرازيل إلى جانب رشيد سليم الخوري «الشاعر القروي» وفوزي معلوف، نظم جلّ شعره

على الأساليب العربية القديمة، وكان يعتز بتلمذته على روائع أساطين الشعر العربي كأبي الطيب المتنبي، بينما جنح مصيص إلى الشعر المنثور وهو الهارب الدؤوب من القوافي والأوزان التقليدية، غير أننا نجد عند كليهما جوانب مشتركة تخولنا للاستنتاج بأن القالب اللغوي، حتى وإن لم يكن متطابقاً، لم يمنعهما من التلاقي في أرض تعبيرية ومواقف فكرية مشتركة.

ترجمة الذات الراحلة

ليس من باب المصادفة أن تكون حالتا إلياس فرحات (1893 - 1977)، ومحفوظ مصيص (1916 - 1990)، قد اجتمعتا في ديار المهجر الجنوبي، البرازيل فيما يتعلق بالأول، وتشيلي بما يخص الثاني، إذ إن وقائع الشعر المهجري في جنوب القارة تزخر بمقومات استثنائية أثّرت تأثيراً عضوياً في شخصية الشعراء العرب. في نظرنا، تضم السيرة الذاتية للشاعرين محطات لا تختلف جذرياً عن تراجم نسبة كبيرة من شعراء المهجر الأميركي الجنوبي. لقد استقر مآل الرحيل بفرحات في البرازيل، وهو المولود في كفرشيما اللبنانية العام 1893، في سن السابعة عشر، وكانت ولاية ميناس جرايس وجهته الأولى انتقل بعدها إلى جويز دي فورا ومنها إلى مدينة ساو باولو الذي استقر به المقام بعد سنوات من عمله كبائع متجول. وأتاحت له أوضاع الاستقرار فرصة الانكباب على النّظم والتقريض في أوقات الفراغ وقراءة عظماء الشعر العربي (قطامي، ص. 88-110). ومما يسترعي انتباه المطلعين على سيرته الذاتية كما دوّنها قطامي والناعوري، وهما ممن أرّخوا لمسيرته في البرازيل، أو من أصدقائه الكتّاب من أمثال جورج معلوف، أن خطواته الشعرية الأولى أوصلته إلى تأليف الزّجل باللهجة اللبنانية، على منوال عدد كبير من الشعراء اللبنانيين والسوريين «الشعبيين» الذين تعاطوا النّظم في شبابهم. ومما يثير التعجب مجدداً أن إلياس حبيب فرحات لم يكمل تأهيله المدرسي بل ترك المدرسة في سن مبكرة، وقد أخذ آليات النّظم والإيقاع من الشعراء العرب القدامى أنفسهم، وهو القارئ المجتهد

والمتردد إلى منازل الأصدقاء الشعراء «المحترفين» الذين أسدوا له نصائح وإرشادات نافعة أو صحّحوا له أخطاءه في النّظم والإلقاء.

ويعتبر انصرافه إلى الفصحى والابتعاد عن الزّجل واللهجة اللبنانية اختياراً له دلالات معنوية وأخلاقية متعددة، لها علاقة مباشرة بمواقفه السياسية. ويتعذّر فصل انحيازه اللغوي هذا عن نزعاته العروبية («شاعر العروبة» هو أحد أوصافه الأكثر رواجاً)، وهو المدافع باستماتة عن الثورة السورية على الفرنسيين بعيد الحرب العالمية الأولى، والمعارض الشديد البأس لعزل لبنان عن بلاد الشام طبقا لمقاييس أوروبية استعمارية. كما عهدنا في فرحات، الملتزم بنظم شعره على الأساليب العربية القديمة، سَوْرات الغضب والامتعاض إزاء الأسلوب الغامض و«المغامرات» اللفظية والدلالية التي أقدم عليها بعض الزملاء في المهاجر.

فيما يتعلق بموقف فرحات من القضايا العربية المصيرية وصلتها الوثيقة بلغة الإبداع الأدبي، فلا يمكن القطيعة بين الهم اللغوي والهاجس السياسي، إذ نكاد لا نجد في محافل المهاجر العربية شاعراً ينخرط في وقائع وطنه الأصلي ويتفاعل معها مثل انخراط وتفاعل إلياس فرحات مع الشؤون العربية، بدءاً بمشروع لبنان الكبير المدعوم من القوى الكولونيالية الأوروبية وانتهاء بالنكبة الفلسطينية أو التوسع الغربي الجديد نحو المشرق إبان الخمسينات والستينات من القرن الماضي (Gutiérrez de Terán, ص. 55)، ولذلك فليس من المستغرب أن يكون شعره الوطني قد ذاع ذيوعاً ملحوظاً في العالم العربي وفي المهاجر إبّان النصف الثاني من القرن الماضي وبعد مماته في العام 1977. وقد صادفنا في عدد من الجرائد البرازيلية المعاصرة المحتفية بشخصيته «البرازيلية بالتبني» إشارات واضحة إلى كونه «من أشهر شعراء العرب» في القرن العشرين. أما محفوظ مصيص، فثنائية اللغة - الوطن الأصيل تحتل مكانة لا تقل ثقلاً ووزناً عنها لدى فرحات، وإن انطلقت ثنائيّته الخاصة من إرهاصات مغايرة، فاللغة تتحول في مؤلفات مصيص، الذي تَنَقَّلَ بأريحية بين النثر والشعر والمقال الصحافي والبحث

الأكاديمي، إلى وسيلة مثلى لتكبير صوت الوطن المكبوت في داخله. ولا يؤثر كثيراً أن تكون الآلية التعبيرية المتخذة في حالته هي الإسبانية، فقد تبين لنا من خلال قراءتنا الشخصية لقصائده وكذلك قصائد فرحات أن الاثنين يشتركان في الهوس الإنساني الاجتماعي ذي لون سياسي صريح على الرغم من التباين في الصيغ والأشكال والأنماط الأدبية المستخدمة، وفي مقدمتها طبيعة لغة التعبير نفسها.

اختيار اللغة المفتاحية

كان فرحات منتمياً إلى المدرسة الشعرية العربية الرائدة في بلاد الجنوب الأميركي وهي المدرسة المرتبطة ارتباطاً لصيقاً باللغة العربية، لدرجة أننا لا نكاد نجد لدى الرعيل الأول من المهجريين الجنوبيين من نظم أشعاره بلغة بلاد التلقي سواء أكانت الإسبانية أو البرتغالية، على خلاف ما لاقيناه في المهجر الشمالي حيث دأب البعض على تأليف جزء من إنتاجه الأدبي بالإنجليزية مثل جبران أو نعيمة أو الريحاني، علما بأن الأخيرين ولاسيما نعيمة دأبوا أحياناً على نقل مؤلفاتهم بالإنجليزية إلى اللغة العربية. ولا نكاد نعثر على هذه النزعة الثنائية اللغة في المهجر الجنوبي إلّا في حالات قليلة مثل إلياس قنصل الذي كتب جزءاً من أعماله بالإسبانية. أما الأجيال التي تلت المجموعات المؤسسة للحركة المهجريّة فانصرفت بالتدريج إلى اللغات المحلية الإسبانية والبرتغالية والانجليزية، أي مثل محفوظ مصيص المنحاز للإسبانية في الطور الأول من مسيرته الفنية. وهناك عامل آخر يجمع بين شاعرينا هو انخراطهما في كتابة المقال الصحفي والمساهمة في النقاشات السياسية والاجتماعية الدائرة في أوساطهما المقربة. وكان فرحات أكثر شدة وحماساً في هذا مجال عبر مقالاته النارية الصادرة عن منشورات الجالية العربية في البرازيل، إذ حدا به عنفوانه الفكري إلى الانفصال عن «العصبة الأندلسية» الشهيرة بحجة أنها كانت تتحاشى المواضيع الأيديولوجية والنقاش السياسي في وقت كان العرب في أمسّ الحاجة

إلى التعمق في مثل هذه القضايا، لاسيما المعضلة الطائفية الشائكة التي أصبحت في نظر فرحات إحدى العقبات الرئيسية الحائلة دون تحقيق التآخي والتلاحم بين الشعوب العربية. وما زالت أبياته المعادية للعصبية الدينية ترن في آذان الحالمين بوطن عربي منزه من النعرات الطائفية:

لو أوصى بكره العرب دينٌ/ لكنت إذن إمام الملحدينا (الديوان/ الربيع، 211)

ومما يسترعي الانتباه في سيرتي الرّجليْن أن محفوظ مصيص يميل إلى اعتبار الاعتزاز الزائد بالانتساب إلى طائفة أو ملّة دينية معينة أمراً سلبياً يحول أيضاً دون تأمين حقوق الشعوب العربية المظلوم. ويسهل لمس هذه المعاداة للعصبية الدينية في قصائدهما الأولى ثم تتلاشى النبرة العدائية مع مرور السنوات بالذهاب إلى مواقف أكثر روحانية وانطوائية. ومن باب المصادفة أن مصيص، المسيحي الديانة، كُتِب له أن يشهد النور في السنة ذاتها التي نزل فيها إلياس فرحات في الأراضي البرازيلية، أي 1910، إلّا أنه نشأ في بيئة عائلية مختلفة تماماً إذ لم يذق المرارة والمعاناة التي قاساهما فرحات في سنوات اغترابه الأولى. ويندرج مصيص في قائمة طويلة ولامعة من الأدباء التشيليين من أصول فلسطينية الذين اتخذوا الإسبانية وسيلة للتعبير عن أنفسهم، من بينهم سلفادور جينيني وأندلاس سابيلا وأولغا لولاس وفريد نصار وماتياس رفيدي وفريد متوازي وتيودورو السقا، وهم المذكورون في كتاب «مهجريون جدد» الصادر باللغة العربية عن وزارة الثقافة الفلسطينية، وكذا في منتخبات أخرى سبق نشرها باللغة الإسبانية وتشمل الشعراء التشيليين من أصول عربية وليس فقط من الفلسطينيين.

وقد يظن البعض أن فرحات كان معزولاً عن محيطه البرازيلي بحكم انشغاله بهموم العرب ومتقلباتهم، على خلاف مصيص الذي اختلطت في أشعاره المادة العربية الفلسطينية مع الوقائع الحضارية الأميركية اللاتينية، إلّا أن قصائد فرحات ولاسيما غزليّاته تضم تلميحات مباشرة إلى

المحيط الاجتماعي والثقافي البرازيلي، كما في «أمنية»:

«سان باولو في ساحاتها/ وعلى سطوحها وفي الطريق

بحر من الغادات من لي/ أن أموت به غريق؟» (فواكه رجعية، ص. 95)

أو في قصيدة أخرى من الديوان ذاته:

في حسناوات كوباكابانا في ريو دي جانيرو:

«بعد قليل جاءت الأم/ بالضيفة الحسناء تهتم

عريانة أو نصف عريانة/ مثل أماليد كوبكبانا» (فواكه رجعية، ص. 66)

الانتماء من خلال اللغة

إذا كان فرحات يؤكد التزامه بالهوية العربية بواسطة الفصحى والأنماط التفعيلية (دون التخلي نهائياً عن الزّجل وبعض القصائد العارضة المنظومة بأوزان وبحور متداخلة) وكذلك بالتطرق إلى قضايا سياسية وفكرية جدلية، فإن مصيص أبدى تعلقه المستمر بالأصل الفلسطيني من خلال الاتكاء على الأساطير والملاحم التي تختزل الطاقة الفلسطينية الحضارية والرمزية، كما أنه يلجأ إلى ذكر حيوانات وأماكن وأعلام يمتّون بصلة مباشرة إلى الوطن الذي حرم منه. وبما أنه انتُزع منه أيضاً الأرض والمكان فنجده محلقاً في فضاءات مليئة بكنه فلسطيني لا يمكن التغاضي عنه. وتجدر الإشارة إلى أن شاعرنا مصيص عانى من المنفى مرتين، الأولى في أعقاب اضطرار عائلة أبيه لمغادرة فلسطين ثم منعت من الرجوع إليها، والثانية بعد أن استولى الجنرال أغوستو بينوشيه على مقاليد السلطة في تشيلي العام 1973 فأجبره على البقاء في فنزويلا حيث كان يمثل حكومة الرئيس سلفادور الليندي المخلوع. ويظهر إحساس المنفى هذا بنتاجه الأدبي عبر الإشارة الضمنية إلى اغتراب خارجي، وهو الذي يقاسيه الشاعر حيال محيطه الاجتماعي، يقابله اغتراب باطني، وهو شعور الغربة مع الذات. ولم يبرح مصيص عاصمتها كاراكاس ما بقي له من الحياة إلى أن وافته المنية في العام 1990. وقد خلص البعض إلى وصف مصيص بأنه «أديب الانتفاضة» لأن إنتاجه شعراً ونثراً يمثل محاولة دؤوبة لمقاومة مساعي الإدماج القسري الذي واجهه المهاجرون العرب الأوائل إلى أميركا اللاتينية. كما وصفت أعماله وأنشطته بمبادرة المقاومة الشديدة البأس حيال مساعي الجهات المؤيدة للمشروع الصهيوني في سبيل تجريد القضية الفلسطينية من ذاكرة هؤلاء المهاجرين أنفسهم (El Attar).

تعرّض المهاجرون الفلسطينيون، شأنهم شأن اللبنانيين والسوريين، لظروف معيشية صعبة جداً في المراحل الأولى، إلّا أن الفلسطينيين وقد انتشروا في تشيلي وهندوراس انتشاراً كبيراً، شهدوا نمواً اقتصادياً باهراً في الثلثين الأخيرين من القرن العشرين، مما سمح لهم بالتربّع على قمة الهرم الاجتماعي والاقتصادي التشيلي، لدرجة أنهم يشكّلون اليوم إحدى المجموعات البشرية الأكثر ازدهاراً في البلاد.

ولم يلبث أن تكامل هؤلاء الوافدون العرب تكاملاً ثقافياً مع مجتمعاتهم الأميركية الجديدة. وتجذّرت مساعي الانصهار في موطنهم التشيلي بصورة ملحوظة، حيث وازن أدباؤهم بين اللغتين العربية والإسبانية أثناء تعاملهم مع المجتمع المحلي ومقومات الجالية العربية، ثم انحازوا إلى الإسبانية كلغة رئيسية للكتابة إن لم نقل الوحيدة، وذلك في أعقاب ترسخ الرعيلين الثاني والثالث وتكيفهما التام مع المحيط الأميركي اللاتيني. وبلغت عملية الاندماج هذه حدّاً بعيداً تخطى التخوم اللغوية المحضة. فبالإضافة إلى القالب اللغوي فإن بعض الأدباء أذعنوا كذلك لنمط معين من الخطاب «الاستشراقي» المهيمن في بعض الأوساط الثقافية التي كانت تصبو إلى محاكاة التيارات الثقافية الاستعلائية السائدة في أوروبا والولايات المتحدة. وقد تنبّه مصيص منذ وقت مبكر إلى هذا الأمر، نقصد هشاشة وضع المهاجر العربي الفلسطيني المتدرج في المحيط الثقافي الأميركي ومطالبته

ضمنياً التجرد من ردائه الحضاري الأول، فعمل على احتواء عواقبه، وذلك من خلال إعادة تأكيد أصوله الفلسطينية. ومما يعكس هذا التوجه إقدامه على تغيير اسمه من أنتونيو، مثلما عمده والداه المسيحيان، إلى محفوظ، بغية منه في تثبيت بنيانه الثقافي العربي، غير أن هذا القرار جاء مرفقاً بقرار آخر قد يبدو متناقضاً مع خطوة تبديل الاسم العلم، وهو انفراده باللغة الإسبانية دون العربية. وما فتئت الإسبانية تطغى على عطائه الأدبي بعد ديوانه الأول «وحوش الأسى»، 1942.

وعلى نقيض عدد لا يستهان به من الشعراء التشيليين ذوي الأصول العربية، فإن مصيص كان يجيد اللغة العربية حديثاً وكتابة على الرغم من ولادته خارج الوطن، إذ اغتَرفَها رأساً من والديه اللذين استقرا في تشيلي في فترة لم يشكل الجانب اللغوي شرطاً للانصهار الاجتماعي. وكان مصيص قد وظف معرفته بالعربية لإتمام مهام مهنية في أهم المؤسسات الثقافية التابعة للجالية العربية في تشيلي. ولا شك أن اصطفاء الشاعر لاسم علم عربي يحمل في خباياه مدلولات ومعاني خطيرة للغاية، لاسيما وأن معظم الوافدين العرب كانوا يعتادون تسمية أولادهم بأسماء إسبانية لتفادي التهميش الاجتماعي. ولقد أثبت مصيص من خلال خطوته هذه المعاكسة للتيار أنه لم يعبأ بما عسى أن ترتدّ عليه من انتكاسات وسوء تفاهم من لدن الطبقة الثقافية المهيمنة. لم يكتفِ بالمجاهرة بعروبته عبر اسمه العربي وإنما حرص على تشديد هويته العربية المتهشمة في أبياته، وكذا قوله «أنا العربي الأسمر الفحل، أصدر، على غرار التيس، عُوائي الحافل بالتنبؤات» (قصيدة القروح، الديوان Massís ص. 29). كما نعت مصيص نفسه في قصائد أخرى بـ«العبد المملوك، المجنون والهارب من الجندية»، وهو تصنيف ينمّ عن وضعيته غير المريحة أمام بيئة ثقافية تظن نفسها متناسقة الهوية وغير متهيئة لاستيعاب المواقف الشاذة المتنكرة لمسلَّمات الهوية المتماسكة.

وتفاعل مصيص مثل فرحات مع الأوساط الأدبية العربية الناشطة في بلاد

المهجر، ولا بد أن نذكر بأن مدينة ساو باولو كانت قد احتضنت العصبة الأندلسية المؤسسة في 1932 ثم عصبة الأدب العربي (1979)، وهي جمعيات احتذت ببادرة الرابطة القلمية الواسعة الصيت بالولايات المتحدة (1920). ولم يتأخر مثقفون عرب آخرون في إنشاء مؤسسات مماثلة في بلدان أخرى، كما في بوينوس أيريس مع الرابطة الأدبية الأرجنتينية (1949) وكذلك العاصمة التشيلية سانتياغو دي تشيلي وقد تكاثرت فيها المنظمات والمنتديات الثقافية العربية مثل النادي الفلسطيني الذي يعود تاريخ تأسيسه إلى العام 1920.

ويبدو أن مصيص تأثر بالأهداف الأولية للعصبة الأندلسية في البرازيل ومواقفها من العروبة ومساندة مفهوم الوطن العربي، مما شجعه على إيجاد وسائل ملائمة لإبقاء المهاجر العربي على اتصال دائم مع أوطانه الاصلية. ومرة أخرى يتيسر لنا لمس هذا المنحى في قصائده الأولى التي تختلج فيها النزعة المعادية للتدين والطائفية والانعزالية، وهي مواقف نجدها أيضاً عند أعمال شعراء العصبة الأندلسية عامة وفرحات على وجه الخصوص. وعليه فإن الصبغة القومية العربية ظلت واضحة للعيان في أعمال نسبة معتبرة من شعراء المهجر الجنوبي، مما يدعونا إلى الاستنتاج بأن مصيص كان من المعجبين بتلك العصبة كما صممها مؤسسوها الأوائل. فعلى هذه الأرضية، وبصرف النظر عن اللغة المعتمدة أو الأساليب التعبيرية المفضلة، فإن فرحات ومصيص يمثلان خياراً إنسانياً يعمل على تحويل اللغة إلى وسيلة متجددة للتعبير عن الذات الوطنية والاجتماعية.

المصادر والمراجع

• العربية

بلبع، عبد الحكيم، حركة التجديد الشعري في المهجر. بين النظرية والتطبيق، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1980.

الخصار، عبد الرحيم، «الشاعر محفوظ مصّيص حمل عطريافا الى التشيلي»، ذي إندبندنت، الشاعر محفوظ مصّيص حمل عطريافا الى التشيلي، إندبندنت عربية (independentarabia.com)، 8 نوفمبر/ تشرين الثاني 2023.

ديب، وديع، الشعر العربي في المهجر الأميركي، بيروت، دار الريحاني، 1955.

فرحات، إلياس حبيب، فواكه رجعية، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1967.

فرحات، إلياس حبيب، ديوان (الربيع / الصيف / الخريف / الرباعيات)، ساو باولو، 1954.

فتوح، عيسى، دراسة في حياة وأعمال نخبة من أعلام الأدب الحديث في سورية والمهجر، بيروت، الحمراء، 1992.

قطامي، سمير بدوان، إلياس فرحات.. شاعر العرب في المهجر.. حياته وشعره، القاهرة، دار المعارف بمصر، 1971.

صيدح، جورج، أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية، بيروت، دار العلم للملايين، 1964.

يعقوب، أحمد، مهجريون جدد.. شعراء فلسطينيون في تشيلي، (منتخبات من شعر ثمانية مؤلفين تشيليين من أصل فلسطيني)، فلسطين، وزارة الثقافة، 2018.

• الأجنبية

El Attar, H.-A. A. (2010). Una intifada literaria. Mahfud Massís: El poeta palestino-chileno. EIAL - Estudios Interdisciplinarios De América Latina Y El Caribe, 21(2), 77–95. https://doi.org/10.61490/eial.v21i2.30 (تاريخ المراجعة: 8 أكتوبر/ تشرين الأول 2024)

Gutiérrez de Terán Gómez-Benita, Ignacio, “El poeta de la “`Uruba” entre dos mundos: Elías Fartat y la dia´spora de las Américas”, Idearabia, nº 1, 1996, pp. 47-56.

Jayyusi, Salma khadra. Trends and Movements in Modern Arabic Poetry. Leiden: Brill, 1977.

Massís, Mahfud. Antología (Poemas 1942-1988), Caracas, Editorial Dialit, 1990.

Orellana, Manuel Espinoza, “La poesía de Mahfud Massís”, La Época 6 de mayo 1990: pp. 6-7, https://www.memoriachilena.gob.cl/602/w3-article-71709.html تاريخ المراجعة: 9 أكتوبر/ تشرين الاول 2024 .

Rafide Batarce, Matías, Escritores chilenos de origen árabe, Santiago de Chile, Editorial Universitaria, 1989.

Macías, Sergio. “Palestina y otras aproximaciones árabes en la literatura chilena”. Awraq, vol. XXIII (2006): 155- 75.

العربية في لغة ثربانتس

الدكتور محسن الرملي

«لولا الثقافة العربية لما استطاع ثربانتس أن يجد شكله القصصي»

[1]غونتر غراس (نوبل 1999)

على غرار تسمية اللغة الإنجليزية بلغة شكسبير، والألمانية بلغة غوته، والفرنسية بلغة موليير، والإيطالية بلغة دانتي؛ تُسمى الإسبانية بلغة ثربانتس، وهي تسمية نالها بجدارة واستحقاق هذا الأديب البارع الخالد، الذي كتب أفضل عمل أدبي في تاريخ اللغة الإسبانية، بل غيّر وأثّر في الأدب العالمي إلى يومنا هذا، عبر رائعته (دون كيخوته) التي تُعد انطلاقة للرواية الحديثة منذ أكثر من أربعة قرون. وأنا هنا لا أتناول اللغة العربية في اللغة الإسبانية برمّتها، وإنما في لغة ثربانتس نفسه، وتحديداً في عمله القمة (الكيخوته) دون أعماله الأخرى.

وقبل الدخول في تقصي آثار اللغة العربية في عمله، أرى من الضروري تِبيان: كيف وصلت إليه، علاقته الشخصية بها وطبيعة حاضنتها الثقافية، فلا فكاك بين لغة وثقافتها، كل منها تحتضن الأخرى وتحافظ عليها. وفي هذا المنحى، تجدر الإشارة إلى أن حضور وأثر الثقافة العربية الإسلامية في الكيخوته أكبر من حضور وتأثير أية ثقافة أخرى، باستثناء الإسبانية طبعاً، لكونها ثقافة المؤلف الأصلية والتي هي بدورها، أصلاً، متغذية على أنساق من الثقافة العربية الإسلامية على مدى ما يقرب من الثمانية قرون، هذا على الرغم من معرفة وإعجاب ثربانتس بثقافات أخرى كالإيطالية والبرتغالية مثلاً، إلّا أن الثقافة العربية الإسلامية تأتي بالمقام الثاني بعد الإسبانية، من

حيث حصتها في الكيخوته شكلاً ومضموناً.

ومن ذلك؛ أحصيتُ في الكيخوته (37) شخصية ذات خلفية ثقافية عربية إسلامية، خمسة منها نسائية، كُلّها مُصاغة بعناية، تدلّ على مدى معرفته، عن قرب، بالعرب والمسلمين، وبالتأكيد تجيء في مقدمتها شخصية سيدي حامد بنينخلي (بن الأيلي، وفق الدكتور عبد الرحمن بدوي)، الراوي الرئيسي للرواية، والتي يرد ذكرها في الرواية 37 مرة، 30 منها في الجزء الثاني. وأحصيتُ (22) من الأمثال والحِكَم العربية الشائعة (جزء1 المقدمة، فصول: 1، 10، 18، 20، 21، 28، 31. جII، ف: 10، 12، 19، 23، 33، 37، 48، 50، 53، 55، 66، 67، 71)، وأكثر من (220) كلمة من أصل عربي، فيما يتم ذكر (58) اسم عَلَم من تاريخ وجغرافية العالم العربي والإسلامي، كأسماء لشخصيات ومواقع ومدن وبلدان ومعارك، كما ترد الإشارة إلى نبي الإسلام محمد (ص) ست مرات، وثمة صدى واضح لشخصه ولأحاديثه ولآيات من القرآن في أقوال بارزة للكيخوته.

مؤثرات عبر السيرة

إن أية قراءة لسيرة ثربانتس وأعماله، وبشكل خاص؛ الكيخوته، سوف تكون قراءة ناقصة، وغير مُنصِفة، ما لم تأخذ بعين الاعتبار أثر الثقافة العربية الإسلامية ودورها الأساسي والجوهري في تكوين الكاتب وكتابه شكلاً ومضموناً. وقد هُمّش هذا الأمر طويلاً في الدراسات الغربية إلى أن بدأت التحليلات المعمقة للمؤرخ والناقد الإسباني الكبير أمريكو كاسترو عندما نشر كتابه «تفكير ثربانتس» سنة 1925 ومن ثم كتابه «مقدمات للكيخوته» في بوينوس آيرس سنة 1941 وأتبعها بكتابه «نحو ثربانتس» سنة 1958 ففتح الطريق أمام الكثيرين لإعادة قراءة الكيخوته وفهم ثربانتس بشكل أشمل وأفضل، ومنها على سبيل المثال وليس الحصر، قراءات خوان غويتيسولو كما في كتابه «وقائع متشابكة» سنة 1998 وخايمة أوليفر آسين كما في كتابه «ابنة حاج مراد في أعمال ثربانتس» سنة 1947 والتي

يبحث فيها عن الأصول التاريخية والوثائقية لشخصيات عربية إسلامية حقيقية عرفها ووظفها ثربانتس في أعماله، ومنها شخصية ثريا المعروفة في الكيخوته وكتابه «كيخوته عام 1604» سنة 1948، وروجيه غارودي كما في كتابه «الشعرية المعاشة.. دون كيخوته» سنة 1989، وأنطونيو مدينا موليرا في كتابه «الكيخوته والإسلام» سنة 2005وغيرهم.

فثربانتس شخصياً، كان على احتكاك ومعايشة دائمين بالثقافة العربية الإسلامية طوال حياته، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر. وكونه من (المسيحيين الجُدد)، وهم الذين تحوَّلوا في ديانتهم طوعاً أو كرهاً، من الإسلام أو اليهودية إلى المسيحية، بعد سقوط غرناطة سنة 1492 وبدء محاكم التفتيش وحملات تنصيرها، فكانوا، ومن بعدهم ذريتهم، يُعامَلون كمواطنين من الدرجة الثانية. كان هذا الأمر حاضراً ومؤثراً في كل خطوة، وفي كل ما دوّنه ثربانتس. إنه أندلسي، وأصل عائلته من قرطبة. ميغيل دي ثربانتس ووالده رودريغو لم يقطعا صلتهما بقرطبة وعموم الأندلس، على الرغم من تنقلاتهما بين أكثر من مكان، بهدف كسب الرزق، وفي محاولة لإخفاء أصولهما، وسط أجواء تلك المرحلة المعروفة بمحاكم التفتيش وبالتمييز والقهر ضد من تم تصنيفهم بالمسيحيين الجُدد. وفي رأيي؛ إن أفضل إجراء لدراسة سيرته، سيكون عبر تقسيمها إلى ثلاث مراحل، وهي: ما قبل أسره في الجزائر، أسره في الجزائر سنة 1575 حيث كان يبلغ من العمر 28 عاماً، وما بعد أسره في الجزائر. وبالطبع لسنا هنا بصدد تقديم دراسة تفصيلية عن سيرته، والتي كُتب عنها الكثير من الكتب بأكثر من لغة، ولكننا سنكتفي بإعطاء لمحة بالغة الإيجاز، وبالتحديد، عما يخص علاقته بالثقافة العربية الإسلامية.

وِلد ميغيل دي ثربانتس سنة 1547 في بلدة (الكالا دي هينارس) وهو اسمها من أصول عربية، ويعني (قلعة النهر) وكانت في عهدها العربي الإسلامي الأول تسمى (قلعة عبد السلام). والبيت الذي ولد فيه كان من الطراز الشرقي العربي؛ بطابقين وأعمدة وباحة وبئر أو نافورة، وهذا النوع من

البيوت نجده حتى اليوم في معظم المدن العربية من دمشق وبغداد شرقاً وإلى مراكش وتطوان غرباً. وثربانتس المعروف بفضوله المعرفي بحيث أنه، منذ طفولته، كان يلتقط حتى الأوراق التي يجدها في الشوارع ويشرع بقراءتها (جزء1، فصل9)، لا شك أن هذه الأسماء العربية والمتوارث في المعمار وفي العادات وفي اللغة وما كان مكتوباً على جدران مسجد قرطبة وقصر الحمراء وغيرها، كانت تستدعيه لمعرفة كنهها وأصولها، فكيف وقد كانت جلّ تنقلاته بين مدن وأماكن ذات أصول أو لا تخلو من أثر عربي كقلعة النهر، بلد الوليد، قرطبة، إشبيلية، مدريد، الجزائر، بلنسيا، وهران، لشبونة، إسكيبياس، غرناطة، قادش، وطليطلة وما يحيطها. وإذا افترضنا؛ أن البعض يعد احتكاكه هذا ومعرفته بالثقافة العربية، كان بشكل غير مباشر، فإن تجربته ومعايشته، على مدى ما يقرب الخمسة أعوام، من الأسر في الجزائر، قد كانت حيّة وتفصيلية ومباشرة، مما أحدَث في حياته ورؤيته تحوُّلاً جذرياً، فكتب كل أعماله بعد سنوات الأسر هذه، باستثناء قصائد قليلة وضعيفة كتبها في وقت مبكر من حياته، كالسونيته التي كتبها عام 1566 بمناسبة مولد البنت الثانية للملك فيليب الثاني، والسونيته التي كتبها بمناسبة وفاة الملكة إيزابيل أثناء الولادة عام 1568 وروايته الأولى، الرعوية «غالاتيا» 1585، بحيث يمكننا القول بأنه لولا هذه التجربة الجزائرية، ما كُنّا لنعرف ثربانتس الذي نعرفه ولا الأعمال التي كتبها. فلا نكاد نجد أي عمل من أعماله خالياً من بصمة للثقافة العربية الإسلامية، سواء أكانت على شكل موضوعة رئيسية، كمسرحياته التي تدلّ عليها عناوينها «معاملات الجزائر» و«حمّامات الجزائر» وروايته القصيرة «السلطانة الكبيرة»، أو على شكل مناخ أدبي وأماكن وشخصيات أو تعبيرات أو حتى إشارات وكلمات. وإذا ماعرفنا بأن الطرد لآخر المورسكيين من إسبانيا قد كان بين الأعوام 1609 و1614 وبأن ثربانتس قد توفي بعد عامين من ذلك سنة 1616 فهذا يعني أن ثربانتس قد عايش كل حياته تواجد العرب المسلمين في إسبانيا. كما أن هناك أكثر من استدلال منطقي، يشير إلى أنه كان يعرف اللغة العربية إلى حد ما أو على الأقل لديه معرفة تُمكّنه من

فهمها ومن التواصل بها مع محاوريه العرب. وعلى الرغم من سنوات الأسر وقسوتها، فإن ثربانتس لم يرفض الثقافة العربية، والدليل على ذلك وعلى حجم معرفته الواسعة بها، فقد وافق على العودة، بمحض إرادته، بمهمة رسمية خاصة .ربما استخبارية .إلى وهران في شهر يونيو/ حزيران 1581 بعد فترة وجيزة من تحريره من الأسر.

وكان ثربانتس من أفضل وأهم من وظَّفوا معطيات السيرة الذاتية في أدبهم، وجاء أكبر توظيف لها في عمله القمة الكيخوته، بحيث أن هذه المسألة تُشكّل أحد أهم العناصر في اعتبار عمله بداية للرواية الحديثة لما تتضمنه من رؤية المؤلف تجاه تجربته الشخصية وتوظيفها وتجاه الحياة وتجاه عصره.

مؤثرات تاريخية

عنصر آخر يدعم اعتبار الكيخوته كأول رواية حديثة، وهو المعقولية والجانب الواقعي، وفي كونه شاهداً على عصره ومرحلته التاريخية، وهو يقول بهذا الشأن إن «على المؤرخين أن يكونوا دقيقين، صادقين ولا يتبعون الهوى، فلا المصالح ولا الخوف، ولا الضغينة ولا الصداقة يجب أن تحرفهم عن طريق الحقيقة التي أمّها التاريخ الذي هو مستودع الزمن والأحداث وشاهد على الماضي ومثال وإعلان الحاضر وتنبيه للمستقبل» (جزء1، فصل9).

لقد كان المناخ العام لعصر ثربانتس مطبوعاً بهيمنة الصراع السياسي، العسكري، الديني، الاقتصادي والثقافي بين قطبين رئيسيين هما الإمبراطورية العثمانية وأوروبا التي كانت إسبانيا تشارك في جبهتها بشكل فعال. وقد عاش ثربانتس هذا الصراع شخصياً وفي المقدمة كما هو معروف كجندي في معركة ليبانتو ضمن القوات الإسبانية الإيطالية وفيها طعن في صدره وشلت ذراعه اليسرى، ومن ثم وقوعه في الأسر وهو في طريق عودته إلى إسبانيا عندما اعترضت سفن عثمانية السفينة التي كانت تقله وأخذته أسيراً إلى مدينة الجزائر. حيث فشلت محاولاته المتكررة بالهرب

دون أن يتعرض لعقوبات كبيرة من تلك التي كان يتعرض لها غيره ممن حاولوا الهرب. وهو يروي هذا في الكيخوته بشكل أدق عبر قصة الأسر على مدى أربعة فصول من الجزء الأول (38-39-40-41/I). وتعتبر هذه القصة من أفضل القصص المبثوثة في الكيخوته والتي من خلالها نتعرف على واقع تاريخي واجتماعي عاشه ثربانتس ورسمه لمشهد واسع من ثقافة العالم العربي الإسلامي. أما الموضوعة التاريخية المهمة الأخرى فهي محنة الموريسكيون واضطهادهم وطردهم من قبل إسبانيا، وأفضل تجسيد لذلك هو ما نجده في قصة ريكوته وعائلته التي يرويها ابتداءً بالفصل (II/54). ولا يمكن على الإطلاق إغفال مؤثرات هذين الموضوعين في رؤية وأسلوب ثربانتس بمجملهما.

إن الفارس دون كيخوته قد تمثّل قيم الفروسية العربية الإسلامية أكثر من الغربية ونجده يتبع شروطها ويلتزم بها روحاً وقواعد من أجل أن يعلن نفسه فارساً، ومن ذلك، على سبيل المثال، شروط: البلوغ في السن، التقوى، الحكمة أو العقل أو الثقافة (وقد ربط وأوجز المتنبي شاعر العرب الأكبر هذه الرؤية العربية. والتي تنطبق أو يطبقها الكيخوته. بالقول: «أعز مكان في الدنا سرج سابح/ وخير جليس في الزمان كتاب»)، إيجاد اسم أو أسماء أخرى للفارس واسم لفرسه، إيجاد تابع أو مساعد ونوع شخصيته، الفصاحة وأن يكون شاعراً أو ملمّاً بالشعر حفظاً على الأقل، أن تكون له امرأة حبيبة وإن لم يكن فليقم باختراعها رمزاً وإيجاد اسم لها، الشجاعة، المروءة، التحمل، العدل، رقة الخلال، الكرم والدفاع عن المستضعفين والأرامل والأيتام وما إلى ذلك مما ظل الكيخوته يؤكد عليه في رسالته طوال تجواله.

كما نجد أسماءً كثيرة للحواضر والجغرافيا العربية، منها، على سبيل المثال: النيل الأبيض (ج1، ف14)، الجزائر (1،37)؛ القسطنطينية وتونس وطبرقة (ج1، 39)؛ جبال الريف (ج2، 29)؛ مكة، (ج1، 18)؛ القدس، (ج1، 48)؛ ليبيا، (ج2، 44)؛ قرطاج، تطوان، وهران، سرجيل، وفاس (ج2).

وثمة صدى كبير لشخصيات تاريخية عربية وإسلامية معروفة مرتبطة بموضوعة الفروسية والثقافة أو الشعر، لا يُستبعد وصولها إلى مسامع ثربانتس وخاصة أنها ظلت، وعلى مدى العصور، تُروى مكتوبة وشفاهة ويعرفها كل العرب، وقد أشار إلى هذه الشخصيات أكثر من باحث وإلى احتمالات أثرها على رسم شخصيته، ومنها: عنترة بن شداد، البهلول والمعتمد بن عباد. وهناك دراسات عربية فصلت في التشابهات بينهما وبين الكيخوته.

إن هذا السياق والأثر التاريخي يقودنا إلى الدخول، وبتلاحم أيضاً، إلى الأثر الأدبي.

مؤثرات أدبية

الأدب هو ميدان اللغة الأخصب، وأداتها لإظهار جمالياتها، كما أنه الصورة والشاهد على العصر. وبينما كان الأمر شائعاً ومعروفاً في الثقافة العربية الإسلامية فيما يتعلق بتحويل المادة الواقعية والتاريخية إلى أدب شفاهي ومكتوب شعراً ونثراً واصطلاحاً بما يسمى (السيرة) أو(الملحمة) التي تقص حكايات فرسان وسيرهم، نجد أن بداية أدب الفروسية في الغرب قد ظهرت في القرن الثاني عشر في فرنسا. ومن ثم أول وأهم عمل من هذا النوع في إسبانيا «ملحمة السيد» المعروفة والتي نجد إشارات إليها في الكيخوته، وهي كما نرى ولشدة تأثرها بما هو موجود في الثقافة العربية تتبع الكثير من أصولها وتحمل اللفظ العربي (سيد) حتى في عنوانها وتشير إلى نشأته في الطفولة بين العرب.

وثربانتس في الكيخوته، كعمل أدبي، يتبع أيضاً في الأغلب الأعم قواعد السيرة العربية ابتداءً بتركيبة العنوان نفسه، ففي مقاربة بسيطة يمكننا ملاحظة ذلك في نموذج عنوان سيرة عنترة كمثال:

الجنس الأدبي	اسم الشخصية الرئيسية	إطراء	الانتساب
سيرة	**عنترة بن شداد**	**أبو الفوارس**	**العبسي**
تاريخ أو حكاية Historia	دون كيخوته Don Quijote	العبقري النبيل Ingenioso hidalgo	المانتشاوي أو من لامانتشا De la Mancha

ومنذ مقدمته الرائعة يشير ثربانتس إلى مدى حيرته في تسمية ووضع مصادره الرئيسية كما هو سائد في أعمال عصره، بعد أن يشير صراحة إلى أنه ضد روايات الفروسية المشحونة بالخرافات والتي لايستوعبها عقل مسيحي. ثم يهتدي إلى الحل الأمثل بإيجاد راوٍ أصلي رئيسي عربي (سيدي حامد بن الأيلي) للرواية ويعتبره المؤلف والأب الحقيقي للرواية (I/9،3/II،53/II،61/II،74/II) فيما يعتبر نفسه راوياً ثانياً لهذا العمل وأباً بالتبني على حد قوله في (المقدمة). وهو، على هذا النحو من التورية، يشير إلى مرجعياته ومصادره، وفي الوقت نفسه يتبع أغلب عناصر وتقنيات السير والملاحم الفروسية الأدبية العربية، فكما قلنا: العنوان، الراوي، وهي مسألة غنية عن التعريف في السير العربية بعد التذكير بعبارة «قال الراوي..» التي تحيل الأعمال إلى راوٍ أصلي غائب أو مُغيب ويتم استثماره وتوظيفه لأغراض تقنية، أسلوبية، جمالية وفيما يتعلق بالرؤية والمحتوى والشكل عموماً، وهذا الراوي لا يظهر في الرواية بشخصيته الفيزيائية المتفاعلة كسائر الشخصيات بشكل مباشر. وهو توظيف عربي بحت. عن هذه الموضوعة والعناصر التي سنأتي على ذكرها يمكن التعرف عليها في السير العربية من خلال كتاب «ملحمة المغازي الموريسكية» للدكتور صلاح فضل وكذلك

الدراسة القيّمة للدكتور سعيد يقطين (قال الرواي..). أما في الكيخوته فسنشير إلى بعضها عبر الاكتفاء بالإشارة إلى (الجزء والفصل الذي يتواجد فيها ضمن رواية الكيخوته).

من العناصر أو المواصفات الأخرى الواضحة أيضاً: عمل طويل يضم في سياقه قصصاً مستقلة ولكن يجمعها الإطار العام للحكاية أو الحكاية الرئيسية المؤطِرة وثربانتس نفسه في الكيخوته مدرك لذلك (ج1،ف28، ج2،ف3) اعتماد الحوار كوسيلة رئيسية للروي سواء ما يتعلق بالقصة العامة للعمل أو بالقصص الجانبية التي يتم رويها على لسان شخصيات، تعدد وكثرة الشخصيات الثانوية (عدد شخصيات الكيخوته هو 669 شخصية)، المشاهد الجغرافية والتاريخية والتنوع فيها على مساحات مكانية وزمانية شاسعة فنجد الكيخوته يتجول داخل إسبانيا في أماكن مثل: إقليم دي لا مانتشا، طليطلة، سيرا مورينا، سالامانكا، برشلونة وغيرها، والأماكن الخارجية الأخرى المذكورة من شخصيات أخرى مثل: إيطاليا والجزائر في حكاية الأسير (ج1، ف 39، 40، 41) وألمانيا في حكاية ريكوته (ج2، ف54)، مواصفات الشخصيتين الرئيسيتين: الفارس بمثاليته وتابعه بواقعيته، الحزم والإطلاقية واليقينية في لغة البطل الرئيسي، والذي عادة ما يتحدث على مستوى شامل واسع عالمي كوني إنساني ولا يعترف بالحدود، حيث تكثر تعبيرات: الأكثر، الأكبر، الأفضل، الأقوى، الأجمل، الأشهر، أبداً، إطلاقاً، العالم، الحياة، الدنيا، الأرض، الكون، الازدواجية والثنائية في الأسلوب والرؤية؛ بين البطولة والتواضع، الانتصار والهزيمة، الغنى والفقر، المثالية والواقعية والمثالية والتنقل والمزج بينهما في أغلب الأمور بما في ذلك تكوين الشخصيات. هذا التضاد الذي يكاد يشكل قانوناً جمالياً في الملاحم الشعرية العربية كما يقول آلبارو غالميس دي فوينتيس، موضوعة السحر والسحرة والانسحار والعمالقة وتوظيفها في خدمة السرد شكلاً ومضموناً، وعادة ما يتم استخدام السحر ضد الفارس فيما لا يستخدم الفارس السحر لتحقيق أغراضه، وهذا ما نلمسه في الكيخوته

وفي الآداب العربية سواء السير أو ألف ليلة وليلة، القَسَم والذي نجده في الكيخوته هو الآخر موظفٌ تماماً كما في السير الأدبية العربية (ج1، ف4 و10، ج2، ف27 و51).

معروف أيضاً الوصول المبكر لـ«ألف ليلة وليلة» إلى الغرب عبر الفرنسية في زمن لويس الرابع عشر وعند البحث عن أوائل وصولها إلى الآداب الإسبانية نجد مقاطعَ وقصصاً منها مترجمة أو معادة الصياغة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر والتي من صداها نجد الكثير في بعض أعمال ثربانتس وفي الكيخوته كقصة الحصان الخشبي الطائر الواردة في «الليالي» 357-371، وفي تقنية حكاية الحكايات أو الحكاية الإطار، وفي كون العمل يبدأ بالقراءة؛ حيث نجد شهرزاد قارئة نهمة والكيخوته كذلك، وفي طبيعة توظيف المقاطع الشعرية؛ نوعياتها وتنوع مؤلفيها. كما نجد أصداء أدبية عربية أخرى كحكاية العنزات التي يرويها سانتشو (ج1، ف20) وأصلها في (La Disciplina clericalis) أول مختارات قصصية ضمت حكايات عربية عرفت في الغرب خلال العصور الوسطى كتبها بيدرو الفونسو باللغة اللاتينية في مطلع القرن الثاني عشر، خطاب الآداب والأسلحة للكيخوته (ج1، ف38 إلى 41)، (ج1، ف18)، (ج2، ف 6، 24، 43)، وأصوله في الآداب العربية حيث وضع العرب مخطوطاتٍ وكتباً ورسائلَ بأكملها بهذا الشأن وتحت ما يتم تصنيفه بالمفاخرات أو المناظرات، طرفة أين يكون موضع الشرف عند الجلوس على المائدة، التي يرويها سانتشو وتنتهي بخلاصة: حيثما جلست أنا يكون رأس المجلس (II/31) وأصلها في الأدب الأندلسي وأخباره المعروفة شفاهة أو المدوّنة كما في كتاب «الزهرات المنشورة في نكت الأخبار المأثورة» لابن سماك وفي «الحلة السيراء» لابن الأبار وغيرهما، مؤثرات الحب على الإنسان حيث يجعله شجاعاً (ج2، ف19)، وأصلها في كتاب «طوق الحمامة» لابن حزم القرطبي، وغيرها كمشهد الدمى والمعلم بطرس (ج2، ف26) التي لها أصل في الترجمات والاقتباسات لحكايات عربية بالإسبانية في مجموعة «السندباد» أواسط القرن الثالث عشر.

وبشكل عام، يمكنني المجازفة بالقول بأنه؛ ليس هناك أية تقنية أدبية في الكيخوته لا يمكن لنا العثور على بذور أصلية لها في الأجناس الأدبية العربية المختلفة التي سبقته كالمقامات وحكايات العيّارين والشطّار التي أثّرت في رواية البيكارسك الإسبانية كما هو جليّ في أبرزها وأولها رواية «لاثاريو دي تورميس» 1554 والتي يرد ذكرها وصداها في الكيخوته واضحاً، وتعد من الروافد الأساسية لأصول الجنس الروائي، وكذلك في الرواية الموريسكية التي ظهرت في أواسط القرن السادس عشر وجل أبطالها من المسلمين وتدور عن مواضيع الصراع والتعايش بينهم وبين المسيحيين والتي من أوائلها وأبرزها «قصة ابن سراج والجميلة شريفة»، ويرد ذكرها وصداها واضحاً في الكيخوته، والمغازي وغيرهما، بما في ذلك مسألة توظيف ما في السيرة الذاتية المباشرة للمؤلف ومسألة تدخل الراوي أو الشخصيات في الروي والنقد والتصحيح للعمل داخل العمل نفسه (مثال ما نجده في الفصل الثالث من الجزء الثاني في الكيخوته) وسواها.

مؤثرات دينية

بما أن الأديان كانت هي الخلفية والعمق الأيديولوجي والثقافي واللغوي الرئيسي لذلك العصر، فحتماً أننا سنجد صداها في كل ما ينتجه العصر. وفي الكيخوته الذي هو ابن عصره بكل المقاييس وفيما يتعلق بالإسلام نجد ذكراً لنبي الإسلام ست مرات يمكن تأويلها على أكثر من وجه مختلف، فمثلاً الإشارة الأولى إليه وفي الفصل الأول حين يمتدح مونتالبان لسرقته «تمثال» محمد الذي كله من الذهب. هكذا يمكن فهم الأمر في ظاهره، ولكننا عند تأمل المعاني الأخرى لكلمة (ídolo) في الإسبانية سنجدها تعني أيضاً المِثال والنموذج والقدوة. وأن ثربانتس العارف بثقافة وتقاليد الدين الإسلامي يدرك تحريم التماثيل في الإسلام وأن لا وجود لنوع التماثيل أصلاً. هنا يمكن فهم الأمر على أنه المثال والنموذج الذهبي لمحمد، علماً بأنه لم يستخدم الألفاظ التي كانت شائعة في عصره ضد النبي. كما نجد صدى كبيراً وتشابهات لصفات لافتة

للنظر من شخصية الرسول في شخصية الكيخوته ومنها على سبيل المثال لا الحصر: نضوج العمر عند الشروع بالرسالة، الظروف العائلية والاجتماعية والتاريخية، التسميات، طبيعة وسائل النضال الإنسانية باليد واللسان، العلامة الفيزيائية الخاصة (شامة مشعرة بين الكتفين) وكون كلّ منهما آخر رجل في اختصاصه؛ النبي في النبوة، والكيخوته في الفروسية الجوالة، طبيعة الرسالة وقيمها الأخلاقية، ردود فعل الناس المحيطين به ووصفهم له في البداية بالجنون، الموت (كلاهما، وبعد معارك عديدة، يتوفى في فراش المرض وبعد حمى تدوم ستة أيام). كما نجد صدى واضحاً وكبيراً وعميقاً لبعض النصوص والآيات القرآنية كما في الفصول (13و18) في الجزء الأول وفي الفصول (3،8،33،42،43،60) في الجزء الثاني:

الكيخوته (رقم: الجزء، الفصل)	القرآن (رقم: السورة، الآية)
1.- (I,13). (II,42).	1.- (2,30). (38,26)
2.- (I,18).	2.- (29,60).
3.- (II,3).	3.- (6,59).
4.- (II,33).	4.- (2,214).
5.- (II,43).	5.- (31,17-18).
6.- (II,60),	6.- (65,2-3).
7.- (II,8).	7.- (83,18-22).

وللعديد من الأحاديث النبوية في أقوال رئيسية للكيخوته كما في الفصول (11،14،20،25،33،50) من الجزء الأول، والفصول (2،22،21،10،8،3،2، 62،58،53،43،32،7) من الجزء الثاني، والتي تكاد تكون أحياناً نقلاً حرفياً لها.

عدا ذلك ما نجده من نظرة وطبيعة تعامل ثربانتس مع الإسلام، فهو مثلاً: لم ينتقد أيّ شيء يتعلق بجوهر العقيدة الإسلامية وفلسفتها، وإنما انتقد سلوكيات أشخاص وكان يقوم بهذا الأمر بالمثل تجاه أشخاص مسلمين ومسيحيين، ومن قساوسة وعاديين، إسبان وعرب وأتراك وفرنسيين وغيرهم. إنّ انتقاد أشخاص من العقيدة نفسها هو أمر شائع في كل الديانات، حيث انتقاد رجال الدين المسلمين للمسلمين أنفسهم، والمسيحيين للمسيحيين أنفسهم وهكذا. إنه يميّز بدقة بين الإسلام كدين وعقيدة وبين سلوكيات المسلمين كأشخاص أفراداً أو جماعات.

ومما نجده أيضاً بأن الكيخوته لم يدخل إلى كنيسة أبداً ولم يحارب مسلمين لأسباب دينية أبداً، وإنما كانت حربه دائماً مثالية وضد الظلم عموماً ومن أجل الحرية والعدالة والقيم، بغض النظر عن دين من يحاربه. لقد تعامل ثربانتس مع الثقافة العربية الإسلامية باحترام وإعجاب أحياناً، كما هو الحال في توافق رؤيته وامتداحه لأسلوب القضاء والمحاكمات، ولمفهوم الحرية وحرية العقيدة (ج1، ف22، ج2 54 و58)، ولمفهوم الحب والشِّعر (II/70،II/38،II/16،I/25،I/14،I/6).

كما نجد الكثير من الكلمات، بمفهومها الثقافي الإسلامي ولفظها العربي، منها: Alá الله (ج1، ف40، ج2، ف8 (خمس مرات))، GuAla والله (ج1، ف40)، Almohade المُوَحِّد (ج2، ف10 و63)، (A)Zalá الصلاة (ج1، ف40)، Agi حاج (ج1، ف40 و41)، Alfaqui الفقيه (ج2، ف67)، Adunia الدنيا (ج2، ف50)، Nizarani/a نصراني/ة (ج1، ف40)، Rumí رومي (ج1، ف41).

منذ مقدمته المختلفة، ألمح إلى أن مصادره مختلفة عمّا كان سائداً في عصره، ولا يريد الكشف عنها، بحكم صلابة التقاليد الكتابية آنذاك، والتي تعمَّد كسرها والسخرية منها ـ ونَجَح ـ، وبحكم أجواء محاكم التفتيش أيضاً.

وفي تقنيته اللافتة، جعل أصل روايته مكتوباً باللغة العربية، ومؤلفها عربي سيدي حامد بن الأيلي، كما أنه عارف بشكل الخط العربي، كما يشير إلى ذلك في الفصل التاسع من الجزء الأول، عندما يجد المخطوط في طليطلة، في (سوق الدواب)، ثم جعل راويه يستعين بمترجم موريسكي ليترجمها له، ولم تنقطع أبداً خيوط وإشارات ربط هذا العمل بما هو عربي على امتداد الجزءين.

كان ثربانتس، عارفاً ومتذوقًا للكلمات، مدركًا تمامًا لأهمية اللغات كخطوة أولى نحو تعلم العلوم والاطلاع على الأعمال الأدبية العالمية وفهم الثقافات الأخرى. حيث يقول إن «الدرجة الأولى في سلم العلم، هي درجة اللغات، فبها، بحد ذاتها، ستصعد إلى قمة الآداب الإنسانية» (ف16 ج2). وقد ساعدته تجربته الشخصية على اكتشاف هذه الأهمية، وقادته حساسيته الشعرية إلى التعامل مع الكلمات برقّة كبيرة. لا يكف دون كيخوته عن تصحيح أخطاء سانتشو بانثا اللغوية طوال العمل، ويغضب منه مرات عديدة لهذا السبب، «إلى أين سينتهي بك المطاف يا سانتشو، يا ملعون؟ وأنت تخلط الأمثال والحكايات هكذا... إن اللغة النقية السليمة الأنيقة الواضحة هي عند أهل البلاط المستنيرين، وفي أيّ مكان ولدوا، وأقول المستنيرين لأن كثيرين جداً ليسوا كذلك، والاستنارة هي النحو الصحيح للغة الجميلة التي يصحبها الاستعمال... وأعتز بأني أتكلم لغة صافية، وبوضوح، وحُسن عِبارة» (ف19 ج2).

ويشرح له بوضوح، الفرق بين مفردة وأخرى، أصلها اللغوي والاستخدام العامي لها، مُعقّباً: «وإذا لم يفهم أحد هذه الكلمات، فلا بأس، الاستعمال

والزمان سيُدخلها شيئاً فشيئاً، وعندها ستصبح مفهومة، وهذا هو ما يسمونه: إغناء اللغة، وللاستعمال والعامة تأثير كبير عليها» (ف43 ج2).

كما نجد في (الكيخوته) كلمات وتعابير كثيرة من لغات أخرى كاللاتينية والإيطالية والكتالونية والألمانية والعربية، تعلمها ثربانتس من خلال دراسته وقراءاته وأسفاره واتصالاته المباشرة، وكانت سنوات أسره الخمس في الجزائر كافية ليتمكن من تمييز وفهم بعض ما يتعلق باللغة العربية، بما في ذلك حروفها المكتوبة، رغم أنه لم يكن يعرف قراءتها أو كتابتها، وهذا ما يقوله عن مخطوطة عمله: «وجدتها مكتوبة بحروف عربية، ولما كنتُ لا أعرف قراءتها، وإن استطعتُ تمييز ما هي، فكرت فيما إذا استطعتُ العثور على موريسكي يمكنه أن يقرأها لي، ولم أجد مشقّة في العثور على هذا الترجمان» (ف9 ج1).

وكان الأسرى في الجزائر، وهم في الأصل من عدة دول، يتواصلون مع بعضهم البعض ومع جزائريين وأتراك آخرين، من خلال لغة هي مزيج من عدة لغات، وخاصة لغات حوض البحر المتوسط، تسمى (فرانكا)، «لغة موجودة في جميع أنحاء بلاد المغرب، وحتى في القسطنطينية، ومتداولَة بين الأسرى والمغاربة، وهي ليست مغاربية ولا قشتالية، إسبانية، ولا من أي أمة أخرى، ولكنها مزيج من جميع اللغات، والتي نفهم بها بعضنا البعض» (ف41 ج1).

ومن المنطقي أن تكون غالبية كلماتها، في الأراضي المغاربية، هي من اللغة العربية، إضافة إلى أنه: منذ «عام 711 حتى عام 1610 تقريباً، كانت اللغة العربية هي اللغة المستخدمة في جميع أنحاء الأندلس، وفي العديد من سجلات محاكم التفتيش تم العثور على وثائق عربية، لأن المتهمين لم يكونوا يعرفون أية لغة أخرى (...) ومن الحقائق التاريخية، كان هناك وجود لثنائية اللغة العربية - الرومنسية، منذ عدة قرون في إسبانيا. وفي الأدب الخاميادي (الأعجمية الأندلسية أو العجَميَّة، اَلْخَمِيَا- عند أهل الأندلس،

هي اللغات الرومنسية الإسبانية والبرتغالية والمستعربية، المكتوبة بالخط العربي أو المُعَجَّمَة)، والتي استمر صدى اتصالها بالعربية - الرومنسية بعد تسعة قرون». وبشكل عام، يُقدر بعض اللغويون عدد الكلمات القشتالية الإسبانية التي من أصول عربية بأكثر من أربعة آلاف كلمة تقريباً، وكان ثربانتس على معرفة بذلك حتماً، بل إنه أشار إلى قاعدة عامة لمعرفة الكلمات التي من أصول عربية، وهي التي تبدأ بأل التعريف العربية (الـ AL)، مما جعلها قاعدة شائعة حتى اليوم، رغم عدم دقتها، يقول: «الأبواق albogues هي اسم عربي، كما هو حال كل تلك الكلمات، في لغتنا القشتالية، التي تبدأ بـ (الـ AL)، ونذكر منها مثلاً: almohaza, almorzar, alhombra, alguacil, alhucema, almacén, alcancía, المحسّة/ المخدة، المسائية/ أكلة المساء، الحمراء، الوزير، الخزامى/ الحسيمة، المخزن، القنصية/ الخنزير، وأخرى تشبهها، أكثر قليلاً. وفي لغتنا، ثلاث كلمات عربية فقط، تنتهي بحرف (ي i)، وهي: borceguí, zaquizamí, maravedí أمّا Alhelí, alfaquí الحلي والفقيه، فهي معروفة بأنها عربية لأنها تبدأ بـ (الـ AL) وتنتهي بـ(ي i). لقد قلت لك ذلك عَرضاً، استعدتها من ذاكرتي بمناسبة ذِكرِكَ لكلمة بوق» (ف67 ج2).

وكما أشرنا فإن (قاعدة ثربانتس) ليست دقيقة، لأن هناك كلمات تبدأ بـ (الـ AL)، ولكنها لاتينية الأصل، وأخرى تبدأ بالعكس، أي بـ (ل أ LA)، مثل: العُود LAUD (ف35،12، ج2). وأخرى لا تبدأ بـ (الـ AL)، ولكنها عربية الأصل، إلّا أنها تبدأ بحروف شمسية، فلا تُلفظ اللام، وهي كثيرة، ومنها ما استخدمها ثربانتس نفسه، مثل: الزّيت ACEITE (I,28; II,10 y 53)، الطّبل ATABAL (II,26,61 y 72(4))، السّوط AZOTE (ج1،22،26،29،31،ف52)، الرّقيب ARREQUIVE (II,5)، التِبر/ الذهب TÍBAR (II,38)، وغيرها.

كما أنه يتلفظ بكلمات عربية كما هي وحتى من الدارجة المغاربية ويكتب لفظها بالحروف اللاتينية وماذا تعني كما في الفصول (I/39،40،41) في الجزء الأول (ماكانشي macange، امشي amaxi، تمشي tamaxi). وهو أيضاً يستخدم مصطلحات أو تعبيرات عربية، كما هو الحال في الفصل السادس

من الجزء الأول، مثل تسميته للأنطولوجيا أو للديوان الشعري بـ (كنز قصائد Tesoro de poemas) وهو ما كان شائعاً عند العرب بكتب (الذخيرة أو كنز). ويشير أيضاً (I/41) إلى اللغة التي ابتكرها أسرى الجزائر للتفاهم كونهم من مختلف الجنسيات والتي تسمى (فرانكا Franca) وهي عبارة عن مزيج من مفردات عدة لغات أبرزها العربية.

وثمة تعبيرات وعبارات نموذجية أو جاهزة، شائعة جدًا في الأدب العربي الكلاسيكي والكلام اليومي، والتي نجد أصداءها في الكيخوته، ومنها مثلاً:

«في طرفة عين وانتباهتها» (ج1، المقدمة)، «على بعد رمية سهم. قاب قوسين أو أدنى» (ج1، ف9)، «كان يا ما كان...» (ج1، ف20)، الصيغة التقليدية في بدايات الحكايات العربية، ويصفها «البداية التي أوصى بها القدماء في نصيحتهم» (ج1، ف20)، «الله أكبر» (ج1، ف22)، «لو انشقّت الأرض تحت قدميه وابتلعته» (ج1، ف46)، «أشياء ليس لها رأس ولا ذيل» (ج1، ف48)، «الأطفال قطع من أحشاء والديهم» (ج2، ف16)، «يرى نجوم الظُّهر» (ج2، ف19)، «كما يقولون: يتطاير الشَّرر من عينيه» (ج2، ف19)، «أكبر قليلاً من حَبّة خردل» (ج2، 41)، «لا مجال لديّ لأحكّ رأسي» (ج2، ف51).

وللأقوال الشائعة والأمثال حصة كبيرة في الكيخوته، وهو يعتزّ بمعرفته بها، فيقول: «أنا أضرب الأمثال عمداً، وعندما أقولها تأتي مثل الخاتم في الإصبع» (ج2، ف67)، وهناك دراسات كثيرة مخصَّصة لموضوعة الأمثال في أعمال ثربانتس، فهي، كما يُعرّفها: «جمل قصيرة مأخوذة من تجربة وتأملات حكمائنا القدماء» (ج2، ف67)، ولا يمكن إنكار أن المسلمين هم جزء مؤسِّس من هؤلاء «الحكماء القدماء» في إسبانيا. إن العديد من الأمثال الإسبانية تعود أصولها إلى التقاليد والتجارب العربية، بفضل ثمانية قرون من التعايش الذي كان قائماً هناك، ولهذا السبب فإن العديد من الأمثال العربية مألوفة لدى السامع أو القارئ الإسباني. وثمة أقوال بالإسبانية، تكاد تكون ترجمة دقيقة لأمثال عربية، وإلّا فهي تحمل المعنى نفسه. وهي

إلى جانب أهمية فحواها الثقافية، تعدّ بحقّ وثيقة اجتماعية وأدبية ولغوية، ومِن بين أربعة تعاريف للأمثال في الكيخوته، يقول: إنها «أحكام مُختصرة» (ج1، ف21 و39، ج2، ف43 و67»، «مأخوذ من اللغة والخبرة الرصينة» (ج1، ف39)، وهذا قريب من مفهومها في الثقافة العربية، التي تعتبرها (من جوامِع الكلام). وعلى أيّة حال، فإننا هنا، لن ندرس فهم أو استخدام الأمثال في دون كيخوته، وإنما سنشير إلى بعض ما وجدنا بأنه مأخوذ من الثقافة العربية أو يتطابق مع أمثال فيها، وتجدر الإشارة إلى أن بعضها وُجد مدوّناً، كما في مخطوطة أندلسية، من القرن السابع عشر (المخطوطة رقم 7453 في مكتبة مدريد الوطنية)، أحدها يقول: «لا يهزمك إلّا مَن يقول لك: اخرُج من بيتي أو هات ما أنت مدين به لي»، نجد صداه على لسان سانتشو «لا جواب على من يقول: اخرُج من بيتي أو ماذا تريد من زوجتي» (ج2، ف43)... وهذه بعض النماذج مما وجدنا من أمثال، نعتقد بأن أصولها عربية، سنذكر الأصول، مثل: «خيراً تفعل، شراً تلقى» (ج2، ف66)، «يذهب من عكا إلى مكة» (ج1، ف18)، «الإناء ينضح ما فيه. لا تلد الأفعى إلا أفعى» (ج1، المقدمة)، «الحليم تكفيه الإشارة» (ج2، ف37)، «الطيور على أشكالها تقع. شبيه الشيء منجذب إليه» (ج11، ف19 و53)، « قل لي مَن تُصاحب أقل لك من أنت. المرء على دين خليله» (ج2، ف10 و23)، «الحيطان لها أذان» (ج2، ف48)، «أخَفّ من الريح» (ج1، 21)، «شيء أحسن من لا شيء» (ج1، ف21)، «عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة» (ج1، ف31، ج2، ف12 و71)، «لا تقل لن تشرب من هذا البئر أبداً. لا تبصق في البئر الذي شربت منه» (ج2، ف55)، «ليس كل ما يلمع ذهباً» (ج2، ف33)، «لا عين ترى ولا قلب يحزن» (ج2، ف67)، «إذا أراد الله هلاك نملة، أنبت لها جناحين» (ج2، ف33)، «لكل مقام مقال» (ج2، ف50)، «إن كان بيتك من زجاج لا ترم الناس بالحجارة» (ج1، أورغاندا المجهولة)، «ما أنزل الله داء، إلا أنزل له دواء» (ج2، ف19)، «الإنسان يفكّر والله يدبّر. أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد» (ج2، ف55)، «مدّ رجليك على قدّ لحافك» (ج2، ف53)، «المصائب لا تأتي فرادا. مصيبة تجر مصيبة» (ج1، ف28)، «مِثل الخاتم في الأصبع» (ج1،

ف10 و20)، «اسمع/ امشِ مع/ وراء الذي يبكيك، ولا تمشِ مع/ وراء الذي يضحكك» (ج1، ف20).

أما عن الكلمات العربية، أو التي من أصول عربية ومن اشتقاقاتها، فقد فاقت الـ 200 كلمة، وقد تكرّر بعضها كثيراً، وهي متنوعة، ومن مختلف الميادين؛ كالأغذية والحيوانات والأسلحة والصناعة والفنون والطب والإدارة والقانون والألوان والعسكرية والاقتصادية والجغرافية والزراعية والتصنيفات والوظائف والأزياء والدين، وغيرها. ومنها، على سبيل المثال:

الزيت (53 ACEITE (I,28; II,10 y، صقر (II,41) SACRE، حُرٌّ HORRO
(II,52)، مسكين MEZQUINO (35 I,37; II,13 y)، مهرجMOHARRACHO
(54 I,11 y)، تُرجمان TRUJAMAN (II,26)، القصر ALCAZAR (I,2,50;
(II,9(7),10(2),26، القنطرة(I,49) ALCÁNTARA، مَطمورةMAZMORRA
(23 II,22 y)، القرية ALCARRIA (I,4)، المُدوَّر ALMODÓVAR (I,23(2);
(II,27، مدينة(II,31) MEDINA، سوق الدواب ZOCODOVER (I,22;
(II,19، البوق((3)67 II,19 y) ALBOQUE، الطبل ATABAL (II,26,61 y
((4)72، السوطII,26,35,36,40,41 ;I,22(2),26,29,31(4),52) AZOTE
((13)71,(4)70,(4)69,68,(2)67,63,(4)60,48، العُود LAUD (II,12 y
(35، عنبر ÁMBAR (I,4) الحاجَة(II,33,40,50 ;I,18,34) ALHAJA، الرقيب
ARREQUIVE (II,5)، التِبر/ الذهب TÍBAR .(II,38)، الوصيةALBACEA
((3)II,74)،

الضيعة ALDEA ,35,(2)34,(2)33,30,29,25,24,20,14,4,I,2)، مريض MARRIDO (II,65)، الدَخلة ADAHALA (I,31)،

الكَفالة ALCABALA (ج1، مقدمة، ف44، ج2، ف45،32، 52)،

مُرابطي MARAVEDÍ (ج1، مقدمة، ف31،23، 51، ج2، ف6، 26، 52،62) مُخاطَرة MOHATRA (II,31)، رخيص RAHEZ (ج1، مقدمة)،

الدليل ADALID (I,41)، الفارس ALFÉREZ (I,39(2); II,24)، الرئيس ARRAEZ (I,40; II,63(6))، مملوك MAMELUCO (I,21)، القائد ALCAIDE (I,2(5),17(2),40; II,23,38,49(2))، مولاي MULEY (I,39(2))، الرُبع ARROBA (I,9,37; II,22(2),56 y 66)، الثُمن AZUMBRE (I,10 y 17)، الحِنة ALHEÑA (II,14,28; Pról. 2ª)، البَردعة ALBARDA (I,13,25(2),43(9),44(16),46(2); II,4,5,16,20,22,25(12),30,40, 53(2),56,58(2))، شكيمة JAQUIMA (I,48; II,40,59,71)، تهاليل TAHALÍ (I,37; II,16(2),18,31,36,46)، البُروز ALBOROZO (I,2,4,12,21,24,27,35; II,9,31,36(2),53(2),54,65,74)، جمعة JUMA (I,40(2))، سلامة ZALEMA (I,40; II,45).

الهوامش

*للمزيد من التفاصيل والشواهد والإحالات لكل ما ذكرناه هنا، يمكن مراجعة أطروحتنا للدكتوراه في جامعة أوتونوما مدريد:

Las huellas de la cultura islámica en El Quijote, Muhisin Mutlak Rodhan, Universidad Autónoma de Madrid, Facultad de Filosofía y Letras, Departamento de Filología Española, 2002-2003.

(1) Periódico Diario 16, Domingo 27 de junio de 1999, Madrid.
صحيفة (دياريو 16)، الأحد 27 يونيو/ حزيران 1999 مدريد.

Miguel de Cervantes, Obras Completas, Edición de Florencio Sevilla, Ed. Castalia, Madrid 1999, pág. 1167

Miguel de Cervantes, Don Quijote, (Versión en árabe الترجمة العربية), Traducción y prólogo del Dr. Abdul-Rahman Badawi, Ed. Al-mada, Damasco-Siria 1998, pág. 7. ترجمة وتقديم الدكتور عبد الرحمن بدوي

Más sobre autobiografía y ficción en el Quijote, en Anales Cervantinos nº 16 (1977), págs. 253-254

Ángel Basanta, Cervantes y la creación de la novela moderna, Ed. Anaya, Madrid 1992.

Muhammad Al-Hilali, La caballería árabe-islámica, Revista Al-Mawrid, volumen 12, nº 4, Bagdad 1983, pág. 23

Dr. Salah Fadel, Malhamat almagasi almorisquía; dirasa fi al-adab al-mukaran,(La leyenda de las hazañas moriscas; Estudio de comparación en la literatura popular), (en árabe), Ed. Dar almáarif, Egipto-El Cairo 1989.
د. صلاح فضل، ملحمة المغازي الموريسكية.. دراسة في الأدب الشعبي المقارن، دار المعارف، القاهرة 1989

Dr. Said Hanafi Hasanen, El caballero en las leyendas árabes y españolas, Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islámicos en Madrid, nº 27, Madrid 1995, pág. 141
د. سيد حنفي حسنين، الفارس في الملاحم العربية والإسبانية، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، العدد 27 سنة 1995 مدريد

Dr. Mahmud Thihni, Revista Al-Funun Al- Shaabia, nº 51, El Cairo 1996, pág. 11.
د. محمود ذهني، رحلة في عقل ووجدان مؤلف سيرة عنترة بن شداد، مجلة (الفنون الشعبية) العدد 51 أبريل/ نيسان. يونيو/ حزيران 1996 القاهرة.

Murtada Alshayj Hussain, Don Quijote; La victoria a través del fracaso, Revista Afak Arabia, Bagdad, Febrero 1990, pág. 139
مرتضى الشيخ حسين، دون كيخوت.. الانتصار عبر الفشل، مجلة (آفاق عربية) فبراير/ شباط 1990 بغداد.

María J. Viguera, Don Quijote en andadura egipcia; Cuatro ensayos egipcios contemporáneos sobre don Quijote, Revista Almenara, vols. 7-8, Madrid 1975, pág. 144.
ماريا خ. فيغيرا، دون كيخوته في جولات مصرية؛ أربع دراسات مصرية معاصرة عن دون كيخوته، مجلة (المنارة) الإسبانية، المجلدات 7-8 مدريد 1975.

F. Ferrandis-Tur, Don Quijote y el Cid; El progreso, Santa Cruz de Tenerife 1929.

Salah Fadel, (La leyenda de las hazañas moriscas; Estudio de comparación en la literatura popular), (en árabe) Ed. Dar Alma'arif. Egipto – El Cairo 1989.
د. صلاح فضل، ملحمة المغازي الموريسكية.. دراسة في الأدب الشعبي المقارن، دار المعارف، القاهرة 1989

Said Llactin, Kala al-rawy; (Ha dicho el narrador), (en árabe), Ed. Almarkas Al-Zakafi al-arabi, Beirut 1997.
د. سعيد يقطين، قال الراوي، المركز الثقافي العربي، بيروت 1997.

Álvaro Galmés de Fuentes, Épica árabe y épica castellana, Barcelona 1978.
آلبارو غالميس دي فوينتس، الملحمية العربية والملحمية القشتالية، برشلونة 1978.
Dr. Salah Fadel, Malhamat almagasi almorisquía; dirasa fi al-adab al-mukaran,(La leyenda de las hazañas moriscas; Estudio de comparación en la literatura popular), (en árabe), Ed. Dar almáarif, Egipto-El Cairo 1989.
د. صلاح فضل، ملحمة المغازي الموريسكية.. دراسة في الأدب الشعبي المقارن، دار المعارف، القاهرة 1989
Juan Vernet; Las mil y una noches y su influencia en la novelística medieval española, Ed. Real Academia de Buenas Letras de Barcelona, 1959 خوان بيرنيت، ألف ليلة وليلة وتأثيرها في رواية القرون الوسطى الإسبانية، الأكاديمية الملكية للآداب، برشلونة 1959 ; Angel González Palencia, Historia de la literatura arábigo-española, Ed. Labor, Barcelona 1928 آنخيل غونثاليث بالانثيا، تاريخ الأدب العربي الإسباني، دار لابور، برشلونة 1928 ; Francisco A. Muñoz, Huellas de la literatura árabe clásica en las literaturas europeas, vías de transmisión, Ed. Universidad de Granada, 1993.
فرانثيسكو آ. مونيوث، آثار الأدب العربي الكلاسيكي في الاداب الأوروبية؛ سبل الانتقال، منشورات جامعة غرناطة 1993.
Francisco A. Muñoz, Huellas de la literatura árabe en las literaturas europeas, Ed. Universidad de Granada, Granada 1993, pág. 204.
Dr. Muhammad Majid al-Sayyd, Dos comparaciones entre la espada y la pluma, Revista Al-Mawrid, vol. 12, nº 4, Bagdad 1983, pág. 113.
محمود ماجد السيد، مقارنتان بين السيف والقلم، مجلة (المورد) مجلد 12، العدد الرابع 1983 بغداد.
Mahmud A. Makki, La cabecera de la mesa, Revista Al-Qantara vol. XlX, Madrid 1998, pág. 337.
د. صلاح فضل، ملحمة المغازي الموريسكية.. دراسة في الأدب الشعبي المقارن، دار المعارف، القاهرة 1989.
Américo Castro, El pensamiento de Cervantes, Ed. Noguer, Barcelona 1980, págs. 191-193.
أمريكو كاسترو، تفكير ثربانتس، دار نوكير، برشلونة 1980.
Julia Sáez-Angulo, Las lenguas habladas por los árabes en España, Revista, Tigris, Marzo 1981 Madrid. pág. 55.
Sobre este tema, véase también, Bernard Vicent, Reflexión documental sobre el uso del árabe y de las lenguas románicas en la España de los moriscos (ss. XVI – XVII), Revista, Sharq Al-Andalus, nº 10-11, Madrid 1993 –1994. pág. 731.

هجرة اللغات والتمثّلات الحضارية

هدى الهرمي

أتناول في هذه الورقة البحثية الحديث عن هجرة اللغات ضمن الممارسات الثقافية التي تتّبعها المجتمعات، ودورها المركزي في تخطى الحدود الجغرافية والتحوّلات التاريخية، الأمر الذي يعزّز الروابط البشرية من خلال إنشاء علاقات بين الأمم. والواقع أن الهجرات ظاهرة قديمة وتأثيرها ليس أمرًا طارئًا أو جديدًا في العالم، فالتاريخ زاخرٌ بنماذج متعدّدة عن الامتزاج بين المهاجرين والمجتمعات بفعل اللغة وقدرتها على نقل الخبرات وتبادل الأفكار وأنماط السلوك والموروث الثقافي. ومن الواضح ان تحرّكات البشر في العالم هي أكبر صانع للحضارة أو بالأحرى محرّك الحضارة، فاللغة والمعرفة غير قابلتين للفصل.

ولا أحد ينكر أن اللغات من العناصر الحيوية المتغيّرة، تهاجر وتتداخل وتتفاعل مع بعضها البعض، وانّ أيّ لغة في العالم ليست بمنأى عن الاحتكاك بلغة أخرى، إذ يمكن أن تنتقل وتهاجر إلى شعوب أخرى عبر التّلاقح الثقافي أو الهيمنة الاستعمارية أو المجاورة الجغرافيّة بين الدول. وبالنظر في التاريخ البشري، فقد أدّى الغزو الروماني إلى انتشار تأثير اللاتينية في جميع أنحاء أوروبا.

كما يحدث التفاعل الإنساني بسبب تمازج الحضارات مع بعضها البعض ليتمظهر في التبادل الثقافي ونقل العلوم والمعارف الإنسانية العميقة والمؤثرة، لبناء حوار بين الثقافات وخلق حلقة وصل ذات منحى حضاري شمولي وراسخ، «إذ إن العامل الحضاري والثقافي للغة هو الأهم في التأثير

والتأثر بين اللغات، والعامل الثاني هو كثرة الناطقين باللغة» (1).

هذا ما سعى إلى تمحيصه بعض الباحثين، إذ يشير الدكتور هاشم ميرغني إلى أن اللغة، بعامّة تمثّل مركزاً أساسياً للبحث والاشتغال لشساعة عالمها، وتاريخها الملتبس، وتداخلاتها مع مختلف حقول المعرفة الإنسانية، ونحتها لخريطة تَصوّرنا للعالم وإدراكنا له وتواصلنا معه.

ولمدى أبعد تذهب بعض التّصوّرات إلى أنّ اللغة هي الوجود نفسه منفتحاً أمام بصائرنا، فهي مسكن للوجود، كما في المقولة الهيدغرية الذائعة، فالعالم كما يرى هيدغر يتجلّى لنا من خلال اللغة التي هي أداة اتصال «اخترعها الإنسان ليعطي معنى أو للتعبير عن فهمه الذاتي للأشياء. اللغة تعبّر عن المعنوية القائمة بالفعل بين الأشياء». (2)

إنّ الرحّالة والتُجّار والفنانين الذين ساروا في الأرض شرقاً وغرباً قد مهّدوا السبيل لتمتين العلاقات التاريخية والثقافية بين الأمم، فكانوا أشبه بالوفود الدبلوماسية في العالم. ومثلما تهاجر الطيور آلاف الأميال بصفة منتظمة لتجنّب التغيّرات غير المُواتية سوَاءَ في المَناخ أو مصادر الغذاء، كذلك يهاجر الناس برًّا وبحرًا وجوّاً لأسباب متعدّدة (الهجرة، التعليم، ولأسباب اجتماعية واقتصادية). وتُشير الدلائل المُستمدَّة من علم اللغويات التاريخية أنّ هجرات البشر منذ آلاف السنين أحدثت تغييرًا ثقافيًّا جذريّاً، وأنتجت عدّة تمثُّلات حضارية، الأمر الذي نقل طبيعة العلاقة بين الأفراد والمجتمعات إلى مكان آخر، ممّا يدعم الدور المركزي الذي تشغَلُه اللغة في إنشاء حركيّة مزدوجة بين الهويّة والانفتاح وتخطّي الحدود الجغرافية والعوائق الثقافية. وقد أدرك علماء اللغات أن للغة ارتباطاً بالوجود الإنساني، وأن البعد اللغوي ما هو إلاّ «العنصر المُحدّد في بروز خصوصيّة الإنسان ضمن الموجودات» (3). وقد اهتمت دراسات عربية متنوعة في مجالات التاريخ والاجتماع والحضارة العربية بمظاهر الهجرة والأدب التاريخي والجغرافي.

كلّ ذلك يثير حُزمةً من التساؤلات التي تقودنا لمنظورات متعدّدة لكنّها قد تتمحور في سؤال مركزيّ وهو: كيف للغة أن تصبح معطى خارجيّا ذا معيار مُشبّع بالتصوّر الفرداني والأيديولوجي، تخترق منظومة اللغة المركزية أو اللغة الأمّ، لينفسح المجال للغة مغايرة تسافر بالخطاب ذي التنوع الكلامي أو النص الإبداعي إلى سياق شعوريّ ذي تأثير مماثل لما يُحدثه جوهر المعنى.

وبالتالي فهذا البحث يتلمّس السعي إلى تتبّع مفهوم هجرة اللغة وربطها بالتاريخ كمؤشّر لقياس مدى تطوّرها لدى الأمم الحيّة، والمتّسقة مع التعدّد اللغوي لتصبح وسيلة مُثلى لبناء حوار بين الثقافات والتعرّف على الآخر المختلف. ومن هنا، فإن الفعل التواصلي والأهمّ حسب الباحثين هو الترجمة، أو بالأحرى العملية التواصلية كنتيجة المؤثرات اللغوية في الفهم وقبول الآخر دون أفضلية لغة على لغات اخرى. وهذا ما ذهبت إليه الأستاذة أمال موسى في دراسة لها بعنوان «الترجمة في بيت الحكمة» ذكرت فيها أنّ «كلّ نهضة حقيقيّة مهما كان نوعها ومجال تجلّيها، إنما هي بالضرورة في جزء أساسي منها، ثمرة مُثاقفة كبرى يزيد في نضوجها وبلوغها المذاق الطيّب، ذلك الفضول الجارف والصادق إلى معارف الآخر وإبداعاته. إنها الحاجة التاريخية المُلحّة والأبديّة إلى التّلاقح الخصب والتأثير والتّأثّر وفق جدليّة مُتدفّقة. وانطلاقاً من هذا الأفق النظري، تعدّ الترجمة كضرورة إنسانيّة ومعرفية وكأهمّ آلية من آليات الحوار والتّواصل حيث أثبتت جدارتها في تحقيق الاغتناء المتبادل بين المجتمعات والثّقافات وتأكيد هُويّتها كقانون جوهريّ من قوانين الثقافة الإنسانية» (4).

لقد طبعت عملية مُثاقفة كُبرى العصور القديمة وأهّلت الحضارة العربية بُلوغ درجةٍ عاليةٍ وقمّة شاهقة من قمم التقدّم خاصة في مجالي الفلسفة والعلوم وهو ما نجد له الصدى الوافر والمسموع في كتب فلاسفة العرب كابن رشد وابن سينا والفارابي والكندي، حيث تتراءى لنا بعض نفحات أفلاطون وأرسطو. (5)

وفي المقابل، تعترف بعض النخب الأوروبية بفضل المدوّنة العلميّة العربية في تجاوز الأوروبيين نَفَقَ القرون الوسطى، إذ شكّلت ترجمة أهمّ المُصنّفات العربية الإسلامية عاملاً أساسياً في تطوّر أوروبا وفي خوضها معركة التقدّم، مستفيدة من عُصارة إبداعات الآخرين وعلى رأسها التّفتّق المعرفي العربيّ الإسلاميّ. ونتيجة لحركة الهجرات أخذت العربية تؤثّر وتتأثّر، فتأثير العربية في غيرها من اللغات كان كبيراً وخاصّة بعد اتّساع الرقعة الجغرافية العربية الإسلامية. والذي جعل منها لغةً قويّةً هو ارتباطها بالقرآن الكريم الذي نزل بها، يُضاف إلى ذلك طبيعتها التركيبيّة والدلاليّة الغنية وكثرة المترادفات وانسجامها الصوتي، فأخذت تنتشر بصفة كبيرة في الأقطار المفتوحة وتأخذ مكان اللغات القديمة على لسان تلك الأقوام (6).

وفي سياق بحث الصلة بين اللغات، يذكر الدكتور لؤي عمر بدران أن «اللغة العربية هي إحدى اللغات الساميّة التي ما زلت العرب يتكلمون بها منذ نشوئها وحتى الآن، وثمة أسباب تقف وراء هذا الامتداد الزمني، لعل العامل الأول الذي يتصدر هذه العوامل هو أنها لغة القرآن الكريم، وهي اللغة التي كتب بها العرب والمسلمون تاريخهم وأخبارهم، وبها نظم الشعراء أشعارهم على امتداد العصور، وإليها تُرجمت كثير من العلوم التي كتبت باللغات الأجنبية قديماً (...) وفحوى هذا أن العربية استطاعت أن تستوعب اللغات الأخرى، نظراً إلى خاصية الاشتقاق والتوليد التي تتميز بها إلى حدّ كبيرٍ عن سائر اللغات الأخرى (7).

المسار التاريخي

انطلاقاً من عدّة دراسات في هذا الشأن، كان للغة العربية تأثير كبير على لغات عدة، خصوصاً في المفردات اللغوية، والملاحظ أنها شكّلت مصدراً رئيسياً لمفردات لغات عدّة مثل اللغات الأمازيغية والكردية والفارسية والهندية والتركية، إضافة إلى لغات أخرى كانت تحت الحكم العربي الإسلامي لعقود من الزمن، خصوصاً في علاقتها التاريخية والممتدة بينها

وبين اللغة الإسبانية. إذ أثبت مؤرخون وباحثون لغويون إسبان أن تأثّر اللغة الإسبانية بالعربية عميق جدًّا. ويشهد التاريخ أن العرب المسلمين أسسّوا حضارة عظيمة تجلّت في انتشار العلوم والفن والعمران، كما في الزراعة والهندسة المعمارية إبان تلك القرون وكانت المحصلة انتقال كثير من أسماء الأماكن وأسماء الأعلام والأفعال. وهذا يعود إلى الانتشار الواسع للغة العربية في الأندلس وبعض المقاطعات الإسبانية إبّان العصر العربي الإسلامي الذي بدأ مع فتح الأندلس سنة 711 م، وأصبحت قرطبة عام 929 م مركز الخلافة الثالثة إلى جانب خلافتي بغداد والقاهرة. ومن أشهر المدن الأندلسية التي حافظت على أسمائها العربية، ويتردّد ذكرها في كتابات المؤرخين والجغرافيين، ضمن بحث للدكتور راغب السرجاني:

طُلَيْطِلة : Toledo

بَنْبلونة: Pamplona

قُرْطُبَة: Cordova

إشبيلية : Serilla-Seville

مَالَقَة : Malaga

إلْبيرَة : Elivira

غرناطة: Granada

باجة: Béja

مَارِدَة: Merida

قَشْتَالَة: Castile-Castilla

سَرَقُسطة : Zaragoza

بَرْشلُونة: Barcelona

لَشبونَة: Lisbon

من المعلوم أن إحدى السمات التاريخية للغة الإسبانية تتمثل في تأثير اللغة العربية، منذ الحكم العربي الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية التي تشكّل إسبانيا الجزء الأكبر منها متبوعة بالبرتغال، وتضمّ أيضاً أندورا (الواقعة على التخوم بين إسبانيا وفرنسا) ومنطقة جبل طارق (8)، وذلك لمدّة ناهزت ثمانية قرون بين 711 و1609 وهو تاريخ خروج الموريسكيين من إسبانيا.

ويذكر باحثون في علم اللسانيات أنّ أكثر من 4000 كلمة إسبانية ذات أصول عربية، أي ربع مفردات اللغة الإسبانية، مثلما يقول المؤرخ اللغوي الإسباني، والمدير السابق للأكاديمية الملكية الإسبانية، رافائيل لابيسا في كتابه «تاريخ اللغة الإسبانية»، فضلاً عن أن العامل العربي في تكوينها كبير الأهمية ويأتي مباشرة بعد العامل اللاتيني. ونحن نرى اليوم عدداً كبيراً من المفردات التي تبتدئ بـ (أل) التعريف ممّا يرشدنا في أحيان كثيرة، إلى أصلها العربي، غير أن قليلاً منها بقي على حاله الأصلي كتابة ولفظاً، والأكثر هو الذي أصابه التحريف لما يوجد من فوارق كبيرة بين الحروف العربية والحروف اللاتينية، وبين جَرْس الأولى وجَرْس الثانية، وأسلوب لفظها، فلكلّ قوم في لغاتهم ما ألفوا وما توارثوا. وهذا هو السبب في اختلاف وسائل التعبير واللهجات واللغات (9). كما تعايشت اللغة العربية خلال تلك الفترة مع اللغات الأخرى المنطوقة في شبه الجزيرة الإيبيرية مثل الباسك واللاتينية.

إن من يراقب عناية المؤرخين بدراسة تاريخ الأندلس أو ما يسميه البعض «تاريخ إسبانيا المسلمة» يقف مدهوشاً أمام وفرة المؤلفات القيّمة التي تلقي الأضواء على تلك الحضارة وعلى آثارها في العلوم والفنون والآداب واللغة، حتى أننا نراهم يخصّصون لهذه الحقبة الطويلة من التاريخ المشترك الأبحاث والكتب والمجلات والمحاضرات، كما تنبهنا إلى ذلك الأستاذة سلمى

حفار الكزبري في كتابها «ظلال الأندلس»، إذ ترى أن اللسان العربي في اللغة الإسبانية من أهمّ الآثار العربية في إسبانيا وأكثرها خلوداً، فكان خير أداة للتعبير عن تلك الحضارة خلال ثمانية قرون.

وثمة إشارات ودراسات في التراث اللغوي والبلاغي عند العرب عكست أثر اللغة العربية في الإسبانية وتطويرها، فمن جهة نجد الجوانب التي تكمن في الألفاظ والمصطلحات والأنساق البنيويّة، ومن جهة أخرى كانت اللغة العربية بمثابة الحافز الذي جعل الاسبانية تبحث عن صيغ وأدوات تمكنّها من التعبير عن مفاهيم جديدة. وكانت قرطبة خلال القرن التاسع المركز الثقافي المهمين للثقافة العربية الإسلامية ومقرًّا لإحدى أكبر المكتبات في أوروبا، التي تضمّ 400 ألف كتاب.

اكتسبت الأندلس أثناء حكم الخليفة الأموي شُهرة عالمية في الشعر والأدب والتعلّم، في كل من قرطبة وغرناطة، وكانت الكليات جيّدة الحضور وحسنة التمويل في الأندلس لتغدو لاحقًا نموذجاً لتأسيس أكسفورد وكمبردج في انجلترا. (10)

ومن المثير للاهتمام، تأكيد بعض الباحثين على مسألة التسامح اللغوي وأثره على العلاقة الممتدة بين اللغتين العربية والإسبانية، إذ يؤكد الباحث المكسيكي أنطونيو ألاتورّي صاحب كتاب «ألف سنة وسنة من تاريخ اللغة الإسبانية» أنه عندما عمد إلى كتابة الفصل المُتعلّق بتأثير الحضارة واللغة العربيتين في اللغة الإسبانية وصار ينقِّب في الوثائق والمراجع تيقّن أن شيئاً غير عاديّ كان يحدث له، إذ وجد نفسه يربط التاريخ باللغة. ويعبّر عن انبهاره بالعهد العرب والمسلمين في إسبانيا، قائلاً «شعرت بانجذاب كبير نحو هذا العهد، وأن أبرز ما استرعى انتباهي وسيطر على مجامعي في هذا العهد الزاهر هو التسامح، والمسلمون بعد أن استقرّوا في إسبانيا لم يكونوا ذوي عصبيّة بل إنهم جعلوا مبدأ التسامح ديدنهم». ويضيف ألاتورّي إن هناك شهادة الفيض الهائل من الكلمات العربية التي دخلت واستقرت في

اللغة الإسبانية ليس قهرًا ولا قسرًا، بل لقد تقبّلها الناس طواعيةً واختيارًا.

أما الكاتب الإسباني أنطونيو غالا، وفي معرض حديثه عن العلاقة بين اللغتين العربية والإسبانية، فيعتبر أن اللغة العربية أصلٌ أساسيّ للغة الإسبانية المعاصرة. (11)

ويرى روجيه غارودي أن فكرة التنّوع الثقافي قديمة لكنها ظهرت في أحسن صورها في الحضارة العربية الإسلامية وبشكل أخصّ في الأندلس التي مثّلت تلك الحضارة في أوج ازدهارها، حيث شهدت اختلاط وتمازج العديد من الثقافات دون أن يكون هناك أي تعصّب ثقافي من الحضارة العربية الإسلامية، التي رغم قوتها لم تفرض ثقافتها على الشعوب الأوروبية ولم تُرغمها على التخلّي عن ثقافتها، إذ تميزت الحضارة الأندلسية بالانفتاح على الآخر، ولم تهاجم ثقافته، بل اعترفت بها على عكس ما قامت به الدول الاستعمارية الغربيّة التي حاربت ثقافة الشعوب المُحتلّة بهدف انتزاعها من هويّتها الثقافيّة ونشر الثقافة الغربية.(12)

وفي هذا الإطار يشير صلاح القرني إلى أنه لا يمكن وصف أي لغة من آلاف اللغات التي تُتَكلم اليوم في أنحاء العالم بأنها «بدائية»، ذلك أن كلّ واحدة من اللغات -الموجودة في العالم الآن- تقوم على معجم غنيّ ونحوٍ على درجة عالية من التعقيد، إذ تتألف كلّ لغة من هذه اللغات من نظام لساني غاية في الإحكام يَفي بكثير من الوظائف الاجتماعية لمتكلميها، ومع هذا لا تَشتغل أيُّ لغتين بالطريقة نفسها تمامًا. (13)

الممارسات الثقافية

لقد ارتسمت العلاقة الممتدة بين اللغتين العربية والإسبانية في العديد من الجوانب الثقافية، إذ من شأنها رأب صدوع كثيرة في العلاقات بين الأفراد والمجتمعات التي ينتمون إليها، ولا مجال لأحد الادّعاء بأن ثقافة واحدة لها حظوة على أخرى أو تملك الشرط الأساسي لبناء الحضارة الإنسانية، بل

ينبغي على كلّ انسان على الأرض أيّاً كان جنسه أو مُعتقده أو لغته أن يفخر بأن أجداده قد أسهموا جميعاً في إغناء شجرة الإنسانية. وبشكل عام يمكن القول إنّ اللغة تُبلور التجربة الفكرية والروحية للأمم. وهنا اقتبس هذا المثل الصيني البديع «إن تفتّح زهرة واحدة لا يعني مجيء الربيع، وتفتّح مئة زهرة تجعل الحديقة مُفعمة بأجواء الربيع».

فلا سبيل لخطاب المفاضلة أو دحر اللغات الأخرى في صراع الهيمنة على السياسات اللغوية العالمية.

والجدير بالذكر أن الروابط بين اللغتين العربية والإسبانية وفق الدراسات التي تُعنى بالترجمة، ظلت قويّة من خلال التقارب بين العالمين الناطق بالإسبانية والناطق بالعربية.

فمنذ العصور الوسطى، تطورت مدرسة الترجمة بالغة التأثير في طليطلة واجتذبت العلماء من جميع أنحاء أوروبا. وكان مجال اهتمامها الأساسي الملفات العلمية والرياضية التي تضمنت أعمال ابن رشد من قرطبة (1126 - 1198). (14)

كان المخزون الإسلامي الواسع من الامتياز الفكري بعيدًا عن النفاذ، واستمرت الترجمات في جميع مجالات السعي العلمي. وأصبحت فروع المعرفة هذه كلها عنصراً مُكملاً لتأسيس ما يُدعى بعصر النهضة الثقافي للقرنين الثاني عشر والثالث عشر. وفي إسبانيا جمع ألفونسو ملك قشتالة (1248 - 1252) فريقاً من العلماء أنتج أعمالاً باللغة المحلية مترجمة من اللغة العربية في علم الفلك والتنجيم والأحجار الكريمة وخصائصها الطبية. (15)

إن العلاقة التاريخية بين اللغتين العربية والإسبانية يتم نسجها في حياتنا المعاصرة بصورة متزايدة من خلال الترجمة الأدبية. ويؤكد أكثر الباحثين تفاؤلاً انّ الأدب اللاتيني نال حصّة كبيرة من الاهتمام العربي والعالمي، وهو

ما يزيد من توسيع دائرة العلاقات الثقافية والتاريخية بين اللغتين. فاللغات الحيّة تستفيد ممّا تضخّه موجة الإبداع وحيوية الترجمة.

إنه العمل المتآزر، بين الكاتب والمترجم، الذي يسوده مستوى عالٍ من الروح المشتركة رغم اختلاف اللغات ومنسوب الاعتداد الذاتي بالانتماء للغة الأم. لكن المُلاحظ انّ المبدعين هم أكثر ميلاً إلى الشعور بأنهم متماثلون مع الآخر ويولون اهتماماً بالأدب كرسالة إنسانية شاملة دون اصطناع تمايزات بينهم وبين الآخر المختلف عنهم أيديولوجيا وثقافياً.

كما أظهرت دراسات متعددة في هذا الشأن بروز دور الترجمة في إرساء حلقة وصل مهمة بين اللغات العربية والإسبانية والإنجليزية.

وكلّ ذلك يثير إشكالية الترجمة وتعدّد اللغات ومدى تبلورها ضمن افق إنساني بمنأى عن التعصّب أو التقوقع في سياق الهويّة أو تكريس نمطية عرقيّة، فقد أفرزت هجرة اللغات ثراءً في المعارف والأفكار خارج الحدود الجغرافية والثقافية، في الوقت الذي أزال المترجمون كل عقبة في رحلة قائمة على التنوع الثقافي.

تزايد نشاط الترجمة الأدبية بشكل خاصّ في العصر الحديث مع زيادة الانفتاح الثقافي، خصوصاً مع الغرب خلال القرن العشرين ليتطور نسق الترجمات بين اللغات التي تملك وجاهة أدبية وأهمية ثقافية. فالتفاعل الأكثر إنتاجاً وجدوى بينهما كان سيوجد في الحياة الفكرية من خلال اللغة. وقد خطى بعض الكُتّاب المختصّين في الدراسات الإسبانية خطوات ثابتة نحو الترجمة ومن بينهم على سبيل الذكر الدكتور محمود علي مكي العالم المصري وأحد الموسوعيين الكبار الذين تعدّدت إسهاماتهم العلمية في مجالات مختلفة من بينها التدريس والترجمة والتأليف. كما أن صاحب كتاب «مدريد العربية» قام بترجمة العديد من الكتب الإسبانية منها رواية «مائة عام من العزلة» تأليف غابرييل غارسيا ماركيز، ومسرحية «مركب بلا صياد» و«الأشجار تموت واقفة» تأليف أليخاندرو كاسونا. وقد كان

عضواً في العديد من المجامع اللغوية في الوطن العربي والمجمع الملكي في إسبانيا.

واتصالاً بواقع الترجمة المعاصر أنجز العديد من المستعربين الإسبان دراسات مهمة في الثقافة العربية، وقاموا بترجمة العديد من كتب الأدب العربي بجميع أجناسه من شعر ورواية وقصة قصيرة.

كما ظهرت حركة الاستعراب من جديد في إسبانيا واتجه اهتمامها نحو التراث العربي خصوصاً التراث الأندلسي، فتنوعت تجليّات اهتمامها. ويفسّر المستعرب بيدرو مارتينث مونتابيث هذا الأمر بقوله إن «الاستعراب الإسباني هو دراسة في الأندلسيات أكثر من أيّ شيء آخر وهذا شيء له تفسيره»، موضحاً أن الثقافة العربية والإسلامية لا يُنظر إليها كعنصر خارجي وإنما كعنصر «يوجد في ثقافتنا وتراثنا وداخل بلادنا». (16)

خاتمة

لقد اكتفيت في هذه الورقة البحثيّة بالخطوط والمعالم العريضة التي لا تنفصل عن السياق الحيوي العام لهجرة اللغات، ما يتيح للقارئ والباحث رؤية الانعكاس المتواري خلف تأثير لغة الضّاد في الثقافة الإسبانية، ونسيج الروابط بين الشرق والغرب.

وأختم باقتباس للدكتور حافظ إسماعيلي علوي الذي يقول إن «امتلاك ناصية اللغة والتمكّن من قواعدها ومفرداتها هو بالأساس تمكّن من صورة الحياة والثقافة».

المصادر والمراجع

عبد الصبور شاهين، دراسات لغوية القياس في الفصحى والدخيل في العامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2 ص 226

د. هاشم ميرغني، اللغة بوصفها أيديولوجيا مقاربة لمفهوم التنوّع الكلامي عند باختين، مجلة عالم الفكر، العدد 185- 2022، ص110/109

المسدّي عبد السلام، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب تونس 1986، ط2، ص 48

آمال موسى، الترجمة في بيت الحكمة، وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، ص 9

المرجع السابق: ص 23

ليلى صديق: تأثير اللغة العربية في غيرها من اللغات، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم الجزائر، العدد الخامس 2006 ص 105

د. لؤي عمر بدران، اللغة بين التعصب والتسامح في ضوء السياسات اللغوية العالمية، مجلة عالم الفكر العدد 185- 2022، ص 149

موقع الجزيرة، شبه جزيرة إيبيريا.. زمن الوصل بالأندلس، بتاريخ 2006/06/16

سلمى الحفار الكزبري، في ظلال الأندلس، الهيئة السورية للكتاب، دار البعث، ص 107

. تيم والاس ميرفي، ماذا فعل الإسلام لنا، ترجمة وتقديم فؤاد عبد المطلب، دار جداول – لبنان، مؤمنون10 بلا حدود 2014 ص141

. محمد محمد خطّابي، لغة سرفانتيس تحتفل بأمجادها، العربية مكوّن أساسي في اللغة الإسبانية11 الحيّة، القدس العربي، مؤرشف من الأصل في 17 نوفمبر/ تشرين الثاني 2017

.. د. زموري العياشي، الهوية الثقافية من الخصوصية نحو الكونيّة12

. القرني صلاح، هل بعض اللغات أفضل من بعض، جريدة الرياض 132018

. تيم والاس ميرفي، مصدر سابق، ص 14146

. نفس المرجع السابق ص 15153

. محمد القاضي، الملحق الثقافي لجريدة العلم، 27 يوليو/ تموز 162002

الدراسات العربيّة والمخطوطات في إسبانيا

الدكتور إغناثيو سانشيز

شهدت الدراسات العربيّة ودراسة المخطوطات في إسبانيا تطوّراً كبيراً في نهاية القرن الثامن عشر نتيجة لفهرسة المخطوطات والوثائق العربيّة في دير الإسكوريال على يد الراهب المارونيّ ميغيل كاسيري (ت. 1791)

لم يؤدِّ عمل كاسيري إلى نشر فهرست المخطوطات العربيّة في الإسكوريال فحسب، بل ساعد أيضاً في تعزيز الدراسات العربيّة بمكتبة الإسكوريال وفي عموم إسبانيا. من بين تلاميذ كاسيري، يحتل باتريثيو دي لا تورّي مكانة متميزة، هو ساهم بشكل كبير في تطوير الدراسات العربيّة وكان له تأثير كبير في مجالي علم المعجم وعلم اللهجات.

تهدف ورقتي البحثيّة إلى إبراز شخصية باتريثيو دي لا تورّي والتعريف بدوره وتقريبه إلى الجمهور العربيّ.(1)

ولد باتريثيو خوسيه دي لا تورّي أغيليرا في العام 1760، في قرية أورغاز بمقاطعة طليطلة، وقد تَرَهْبنَ في دير الإسكوريال الهيرونيميّ الملكيّ عام 1777، الذي فيه درسَ علم اللاهوت. وفي عام 1784 بدأ دراسة اللغة العربيّة على يد ماريانو بيتزي وفرانجيشي (ت 1971)، أستاذ الدراسات الملكيّة في سان إيسيدرو بمدريد. بعد ثلاث سنوات عاد إلى دير الإسكوريال كأمين مكتبة ثانٍ. وهناك وضع برنامج الدراسات للغات الشرقيّة، وتولّى بنفسه تدريس اللغة العربيّة.

(1) "أكثر دراسة شموليّة عن حياة وأعمال هذا المؤلف هي لخوستيل كالابوزو، «باتريسيو دي لا تورّي الطليطيّ". ولمزيد من التوصيف، انظر إلى مونرو، «الإسلام والعرب في الدراسات الإسبانية.»

ومن أجل دراسة المخطوطات العربيّة الموجودة في مكتبة الدير، حصل باتريثيو دي لا تورّي على إذن ملكيّ للانتقال إلى طنجة وعلى معاش دراسيّ لدفع تكاليف إقامته في المغرب من عام 1800 إلى عام 1813. هناك درسَ الأدب وعلم الخطوط، وتعلّم اللغة العربيّة باللهجة المغاربيّة، وقام بمهام دبلوماسية كنائب للقنصل. وقد أكسبته دراساته منصباً أكاديمياً في الأكاديمية الملكيّة للتأريخ.

في عام 1814 عاد باتريثيو دي لا تورّي إلى دير الإسكوريال التي قد نهبت على أيدي قوات نابليون الفرنسيّة. وكان أحد المسؤولين الرئيسيّين عن تقييم الأضرار والبحث عن الممتلكات المفقودة بسبب النهب. عاش في الدير حتّى آخر أيامه، وتوفّي عن عمر يناهز 59 عاماً في الرابع من يوليو/ تموز 1819.

الأعمال الأكاديمية

1) "نحو اللغة العربية الفصحى"، نُسب هذا الكتاب إلى باتريثيو دي لا تورّي، ولكن تاريخه المبكر الذي يعود إلى عام 1783، وبعض خصائصه أثارت شكوكاً بين بعض العلماء. ويفترض براوليو خوستيل كالابوزو، الذي كان مديراً لمكتبة الإسكوريال وأستاذ اللغة العربية في جامعة قادس، أنّ المؤلف الحقيقيّ لهذا الكتاب هو ماريانو بيتزي، أستاذ باتريثيو دي لا تورّي في الدراسات الملكيّة في سان إيسيدرو بمدريد.(2)

2) "أمثال وحكم عربيّة مترجمة إلى الإسبانيّة". جمع باتريثيو دي لا تورّي في هذا الكتاب، وهو نتيجة لدراساته وأبحاثه في طنجة، 183 مثلاً عربيّاً شعبيّاً. يظهر بعضها في مصنّفات سابقة مثل مجامع الأندلسيّيْن الزجّاجيّ وابن العظيم

(2) انظر خوستيل كالابوزو، " نحو اللغة العربيّة الفصحى".

ومصنّف ألونسو ديل كاستيو المورسكو؛ وبعض الأمثال الأخرى مأخوذة من التراث الشفويّ المغربيّ في اللغة الدّارجة. وقد قام بدراسة المجموعة الدكتور فرانسيسكو موسكوسو غارسيا، الأستاذ في جامعة مدريد المستقلّة(3).

3) "أسماء أبواب غرناطة ومعانيها". هذا مقالة مختصرة في مجال أسماء المواقع المدنيّة، وهي تشغل ورقتين في المخطوط فقط.

4) "رسالة في حروف الأبجديّة العربيّة". تعليقات في ثماني ورقات عن الخطّ العربيّ وعلم الصوتيات.

5) "معاني بعض الكلمات العربيّة"، مقالة مختصرة غير منشورة في علم المعاجم، تشغل ثلاث ورقات فقط في المخطوط.

6) "معجم قشتاليّ – عربيّ، الذي جمّعه بدرو القلعاويّ (غرناطة عام 1505) بإضافات المحقّق». هذا التنقيح لمعجم بدرو القلعاويّ هو أهمّ أعمال باتريثيو دي لا تورّي. ويُعدّ بدرو القلعاويّ مؤلّف أوّل قاموس ثنائيّ اللغة عربيّ – إسبانيّ، طُبع في غرناطة عام 1505 بعد فترة وجيزة من الفتح القشتاليّ لمملكة غرناطة النصريّة. قام باتريثيو دي لا تورّي بتنقيح كتاب بدرو القلعاويّ بمساعدة مانويل باكاس ميرينو، وخوان دي أرثي إي موريس، مضيفاً الخطّ العربيّ للكلمات ومكملاً المعجم بكلمات جديدة. وقد قام الدكتور فرانسيسكو موسكوسو غارسيا، الأستاذ في جامعة مدريد المستقلة، بتحقيق المعجم ونشر طبعة جديدة في عام 2018.

(3) انظر موسكوسو غارثيا، «الأمثال التي تمّ جمعها في المعجم للأب باتريسيو دي لا تورّي".

(4)

7) "مجموعة من الأدوية المفردة لابن البيطار"، مجموعة لباتريثيو دي لا تورّي غير مكتملة وغير منشورة، وهي تحتوي مختارات من النباتات التي وصفها ابن البيطار (ت. 1248) وترجمة إسبانية لأسماء النباتات مع شرح اشتقاقيّ. والسبب في ترجمة هذا المجموعة هو فائدتها في مجال الطبّ.

8) "مقالات في النحو والشِّعر عند العرب"، هذا الكتاب أحد الأعمال القليلة المطبوعة لباتريثيو دي لا تورّي. ويضم مقالات عن ثراء اللغة العربية وتراثها الشعريّ والتاريخيّ والعلميّ، وفائدة تعلّمها لتطوّر العلوم في الأمّة الإسبانيّة.

تعلّم اللغة العربيّة وتعليمها

يحتلّ باتريثيو دي لا تورّي مكانة بارزة في تطوير دراسات اللغة العربيّة في إسبانيا خلال القرن الثامن عشر. فقد صمّم منهج دراسات اللغات الشرقيّة في دير الإسكوريال، وكان مسؤولاً عن تدريس اللغة العربيّة هناك. وتكتسب أعماله أهمية خاصّة فيما يتعلّق بدراسة اللهجات العربية الدّارجة. وكان اهتمامه بتعلّم اللغة الشفويّة أحد الأسباب التي دفعته للسفر إلى المغرب، كما تُظهر بعض رسائله. وتوجد أول إشارة صريحة إلى تعلّم اللغة العربيّة الدارجة في رسالة بعث بها إلى الوزير ماريانو لويس دي أوركيخو في أبريل/ نيسان 1799، حيث يشير فيها إلى «معلّمي اللغة العربيّة العاميّة في هذه الأقطار".(5) وفي رسالة لاحقة كتبها على وشك مغادرة العرائش فرارًا من وباء، يقول باتريثيو دي لا تورّي: "عندما بدأتُ أنا وملحقاي في التحدّث بالعربية العاميّة والاستمتاع بالتغلّب على صعوبات لغة بعيدة جدًا عن لغتنا

(4) بدرو القلعاويّ، وباتريسيو دي لا تورّي، «معجم الإسبانية العربية".

(5) خوستيل كالابوزو، « باتريسيو دي لا تورّي الطليطليّ"، 203.

في لفظها وطابعها وروحها، جاءتنا أخبار الطاعون التي أزعجتنا بشدّة».(6)

ولا تخلو أسباب هذا الاهتمام في التعامل مع اللهجة العربيّة المغربيّة من الإيديولوجية. على سبيل المثال، في رسالة إلى الوزير أوركيخو في مايو/ أيار 1799، وصف فيها باتريثيو دي لا تورّي عمله على معجم بدرو القلعاويّ، جاء ما يلي: "إن لغته [أي لغة معجم

بدرو القلعاويّ] هي نفس اللغة التي يتكلّم بها عرب غرناطة، وهي أنقى وأعفّ وأصحّ، وهي الأنسب للتواصل مع هذه الأقطار الغربيّة".(7) وفي وقت لاحق، في رسالة مؤرخة في أغسطس/ آب 1799، يقول: "لقد أخبرت سعادتكم في رسالة أخرى من رسائلي بفائدة هذا العمل وعفّة لغته ونقائها».(8)

وتظهر هذه الفكرة بشكل أكثر دقّة في مقدّمة الطبعة المنقّحة لمعجم بدرو القلعاويّ التي نشرها باتريثيو دي لا تورّي عند عودته إلى إسبانيا:

" من المدهش أنّ ثلاثة قرون قد انقضت منذ طباعة هذا المعجم حتّى يومنا هذا ولغته هي نفسها اللغة المتكلّمة اليوم في المملكة المغربية: هناك فرق واحد فقط، وهو أنّ لغة بدرو القلعاويّ هي نفس اللغة التي كان يتكلّم بها عرب غرناطة، وهي أصحّ وأقرب إلى قواعد نحو الفصحى، واللغة التي يتكلّم بها اليوم في المغرب تكثر فيها العيوب النحويّة والركاكة في النطق، وهي عيوب لا تبقى على الألسنة فحسب، بل تظهر أيضاً في كتاباتهم ولا سيما في رسائلهم».(9)

وفي هذه المقدّمة، يذكر دي لا تورّي أيضاً الفروق بين اللغة المتداولة في

(6) نفسه 204.

(7) نفسه 206.

(8) نفسه 212.

(9) انظر القلعاويّ، « معجم الإسبانية العربية"، 65.

المدن المغربية الساحليّة الأكثر تعرضاً للاحتكاك بالأوروبيّين، وبين لغة المدن الداخليّة:

"أمّا في مدن المملكة الداخليّة مثل مكناس وفاس ...، فاللغة أكثر عفّة، وهي أكثر عفّة بين عرب الريف الذين مهنتهم الفلاحة والرعي وما زالوا يحتفظون بنقاء لغة أجدادهم وبساطتها. ويُسمع أحياناً في خيامهم أو ظلالهم، وهي بيوتهم، فصاحة خطباء العرب وشعرائهم. وقد سمعتهم بسرور عظيم أكثر من مرة، عندما كنت أسافر بينهم، محاطاً بشيوخهم أو شيوخ قراهم، وأصغيت إليهم ودرستهم وتعلّمت منهم ودفعت دروسهم وتعاليمهم بكوب من الشاي وبقصص عن آداب أوروبا وعاداتها، فلم أستمتع بمتعة قط أكثر براءة في حياتي".(10)

نجحت حجج باتريثيو دي لا تورّي في إقناع بعض السلطات السياسيّة باقتراح تنظيم دراسات اللغة العربيّة في المغرب التي تشمل اللغة العربيّة باللهجة الدارجة، وباستخدام المبشّرين المسيحيّين في البلاد لتجنب التكلفة الباهظة للبعثة. وقد كتب القنصل الإسبانيّ العامّ في المغرب دون أنطونيو غونزاليز سالمون في رسالة مؤرخة في أكتوبر/ تشرين الأول 1799، موجّهة إلى الوزير أوركيخو ما يلي:

"[...] إذا عزم في المستقبل على أن يبقي في المغرب دائماً على شخص أو أشخاص لتعلّم اللغة العربيّة ودراستها، كما يفعل في الوقت الحاضر الأب باتريثيو دي لا تورّي وزملاؤه على حساب الخزانة الملكيّة، وقد بلغت هذه النفقات في أربعة عشر شهراً على حساب 40000 ريال فيلون، يمكن توفيرها على أحسن وجه، دون الإخلال بفائدة دراسة اللغة المذكورة ومعرفتها. وذلك بإعطاء المهمّة وفرض الالتزام على مبشّرينا في تلك البلاد أن يشتغلوا باكتسابها واحد أو اثنان منهم في كلّ مرة، ويختاروا لهذه المهمّة أصغرهم سناً

(10) نفسه 66.

وأحسنهم استعداداً من بينهم، ويترك ذلك الاختيار على يد ناظرهم.

وبعد أن يتلقى الأوائل التأديب عمليّاً ونظريّاً يظلّون تحت إمرة وزارة سعادتكم، ليذهبوا عندما يناسبهم إلى الكرسي الملكيّ أو مدرسة اللغات الشرقيّة ليتمرّنوا ويدربوا التلاميذ الجدد على اللغة العربيّة؛ وبهذه الطريقة يكون لديهم دائماً مترجمون ممتازون لكلّ ما قد يحدث في المغرب والساحل البربريّ من قضايا، ويمكن أن يستعان بهم معاً في ترجمة إلى اللغة الإسبانيّة مؤلّفات وكتب عربيّة قديمة وقيّمة من بين العديد من الكتب التي تمتلكها مكتبة الإسكوريال الملكيّة التي تحسدها عليها المحاكم الأخرى في أوروبا».(11)

ولسوء حظّ بعثة باتريثيو دي لا تورّي لم يعبأ الوزير بهذه التوصية، وأُمر الملحقيْن اللذين رافقا دي لا تورّي في المغرب وهما مانويل باكاس ميرينو، وخوان دي أرزي إي موريس،(12) بالعودة إلى إسبانيا. ومع ذلك، أرسل حاكم مقاطعة الفرنسيسكان الأندلسيّة في سان دييغو راهبين شابّين إلى طنجة لدراسة اللغة العربية تحت إشراف باتريثيو دي لا تورّي.(13) ويرد في رسالة مؤرخة في مايو/ أيار 1801، وصف موجز للمنهج الدراسي، الذي يتضمّن اللغة العربيّة الفصحى واللهجة العربيّة تحت إشراف معلّم متحدّث أصلي:

"لقد تعلموا في غضون ثلاثة أشهر قواعد اللغة العربيّة الفصحى وهم الآن بصدد ترجمة بعض العبارات العربية وقصص لقمان؛ وبعد أن انتهوا من ذلك وقد فرغوا من هذا التمرين سأمرّنهم على قراءة الرسائل وبعض الوثائق العربيّة المخطوطة المحفوظة في هذه التكية التي في طنجة وبعد أن انتهوا من ذلك سيبدأون دراسة اللغة العربيّة العاميّة تحت إشراف طالب

(11) انظر خوستيل كالابوزو، « باتريسيو دي لا تورّي الطليطليّ"، 211.
(12) نفسه 217 و219.
(13) نفسه 215.

أو معلّم مسلم".(14)

وقد كان لدراسات علم اللهجات التي قام بها باتريثيو دي لا تورّي في المدن المغربية تأثير مباشر في تحرير معجم بدرو القلعاويّ الذي تمّت باستخدام الأبجديّة العربيّة، وتقديم نطقها على أساس اللغة المحكيّة، وتوسيع الأصوات الموجودة بأصوات جديدة. وفي إحدى الرسائل المرسلة إلى الوزير أوركيخو، يبيّن باتريثيو دي لا تورّي عزمه على إنهاء عمله أثناء إقامته في المغرب ونيته طبع إملاء المعجم باستخدام الأبجديّة العربيّة:

"هذا المعجم القشتاليّ العربيّ، وهو أوّل معجم معروف في أوروبا، هو عمل الأب بدرو القلعاويّ [...] ولم يكن لديه في ذلك الوقت أنواع الطباعة العربيّة، على أيّ حال لطباعة العمل كلّه، فقد طبع جميع الكلمات العربيّة بالحروف اللاتينيّة، ممّا أدى إلى صعوبة فهم الموضوعات وجذور الأصوات، وبالتالي لا فائدة لمن يحبّ أن يدرس هذه اللغة [...]. ولذلك فإنّ عملي ودراستي الأساسيّة هي انتقالها إلى اللغة العربيّة وزيادتها قدر الإمكان بالأصوات المعتادة في هذا العصر، ولأجعلها مفيدة للجميع إذا ما رأيت من المناسب طبعها عند عودتي إلى إسبانيا".(15)

اقتناء الكتب والمخطوطات

من بين الأسباب الأخرى التي دفعت باتريثيو دي لا تورّي إلى زيارة المدن المغربية اقتناء المخطوطات العربيّة لمكتبة دير الإسكوريال ونسخ المؤلّفات العربيّة المحفوظة في المكتبات المغربيّة. في رسالة مؤرّخة في يناير/كانون الثاني 1799، موجّهة إلى المفوض الإسبانيّ في المغرب، خوان مانويل غونزاليز سالمون، أعرب باتريثيو دي لا تورّي عن رغبته في فحص المخطوطات الموجودة في مكتبات فاس من أجل الحصول على أعمال مفيدة:

(14) نفسه 232.

(15) نفسه 206-205.

"سيكون من المفيد جداً أن نطلب الاطلاع على مكتبة فاس والحصول على فهرس لمخطوطاتها لنرى ما هي الأعمال التي يحفظونها وكيف يمكننا الحصول على تلك التي تعتبر مفيدة وذات فائدة لأمّتنا. ليتنا نتمكّن من فحص المخطوطات الغريبة المجهولة لديهم، والتي يزعمون أنها موجودة لديهم، إن لم يكونوا قد أحرقوها كما قيل لي؛ ولو استطعنا أن نجد بينها عقود تيتوس ليفيوس المفقودة لوجدنا الكنز الذي طالما بحثنا عنه وتطلعنا إليه عن حقّ».(16)

إنّه محيّر ادعاؤه العثور على الأعمال اللاتينية المفقودة في مكتبات فاس، على الرغم من أنّ دي لا تورّي يفترض في مؤلّفات أخرى أنّ الأعمال اللاتينية الرئيسية قد كانت مترجمة إلى العربية أيضاً.(17) في الردّ على هذه الرسالة المؤرّخة في مارس/ آذار 1799، يُذكر أنّه لم يتمّ الحصول على إذن لزيارة مكتبة فاس، على الرغم من اتخاذ خطوات للقيام بذلك.(18) ولا يوجد دليل على أنّ باتريثيو دي لا تورّي تمكّن من زيارتها. في مارس/ آذار 1800، لم يكن باتريثيو دي لا تورّي قد فقد الأمل في الحصول على فهرس على الأقل:

"لقد مضى نحو عام على انتظاري لفهرس المخطوطات من مكتبة في فاس، ولم يظهر بعد، وهذا سبب آخر يحملني على القيام بهذه الرحلة. فإن كان الحصول على هذا الفهرس ممكناً، فمن السهل جداً من بعد الحصول على تلك للمخطوطات المفيدة والنافعة، وستبقى نسخة منه في حيازة القنصل العامّ، حتّى يمكن، بعلمه ووقته وطلبه، العثور على ما يبدو أنّه جدير بالشراء، وإكمال ما لدينا في مجموعة الإسكوريال من المخطوطات الناقصة والمبتورة".(19)

(16) نفسه 197.

(17) انظر باتريسيو دي لا تورّي، «مقالات"، 21.

(18) انظر خوستيل كالابوزو، « باتريسيو دي لا تورّي الطليطليّ"، 199

(19) نفسه، 221.

وتتضمّن رسائل أخرى مرسلة إلى الوزير أوركيخو من العرائش وفاس أخباراً مختلفة عن اقتناء المخطوطات في دكاكين الكتب، والصعوبات التي تعترضها. تنصّ رسالة كُتبت في العرائش في مايو/ أيار 1799، على ما يلي:

"لقد كنت أنتظر منذ أيّام فهرس دكّان مُزوَّد جيدًا لشريف من شرفاء فاس، ولكن المسؤول عن ذلك لا أدري إن كان قد هلك كما قد مات كثير من الناس ويستمرّ في الموت كل يوم في تلك المدينة. وكان من المهمّ جداً أن يكون لدينا فهرس لهذه الدكّان لمقارنتها بفهرست الأسكوريال لكاسيري ولمعرفة ما يمكن شراؤه من المخطوطات المفيدة ونسخ أخرى لنكمل بها كثيراً من الأعمال الناقصة التي لدينا في الأسكوريال".(20)

وفي رسائل لاحقة بعث بها من طنجة خلال العامين 1800 و1801، يصف باتريثيو دي لا تورّي الإجراءات المماثلة التي كانت تتمّ في مكناس وتورّع باعة الكتب عند بيع الكتب للمسيحيّين:

"لمّا وصلت إلى مكناس، قمت بمساعي نشطة بحثاً عن بعض المخطوطات، فعندما كان حوالي عشرين كتاباً من التأريخ الطبيعيّ والزراعة وغيرها في صناديق ليتمّ إرسالها إلى بيتي، قام صاحبها المغربيّ اعتقاداً منه أنّه يرتكب أفظع جريمة فألغى الصفقة ولم أعد أعرف عنه".(21)

وبعد ذلك بوقت قصير، في سبتمبر/ أيلول 1800، كتب ما يلي:

"لقد وصلت من مكناس إلى طنجة. كان سبب قدومي هو نقص الفرص للاستمرار في شراء المخطوطات؛ وقد انعدم ذلك بمجرد أن تركنا فاس، حيث تباع علناً في الساحة كلّ يوم جمعة؛ غير أنّ أحد المغاربة الثقات قد عهد إليه هناك بشراء بعض المخطوطات الأخرى، وخاصة كتاب تأريخ الرازي. وشراء الكتب في هذا البلد عمل دقيق جدّاً، واللّه أعلم بما كلّفني للحصول

(20) نفسه، 206.
(21) نفسه، 223.

على تلك التي بحوزتي اليوم، وهي في القائمة التي أرسلتها إلى سعادتكم من فاس بتاريخ 10 يوليوز [...] وقد ذكرت في قائمة المخطوطات التي أرسلتها إلى سعادتكم المجلّد الأول من تأريخ أبي الحسن الحسين المسعوديّ، وهذا المجلّد بعته لأحد الملحقين عندي لأنّي اشتريت بعد ذلك الكتاب الكامل في مجلّدين بمقاس ورقة".(22)

وفي مايو/ أيار 1801:

"قد طلبت بعض الكتب من فاس، وخاصّة تأريخ إسبانيا للرازي، وتأريخ ابن الخطيب، وبعض المؤلّفات الأخرى، ولكنّي شديد الشكّ في اجتهاد المغاربة، الذين يعملون قليلاً أو لا يفعلون شيئاً إلّا إذا دفع لهم أوّلاً".(23)

ويرجع هذا الإصرار على كتب التاريخ العربيّة إلى القيمة التي يعلّقها باتريثيو دي لا تورّي عليها كمصادر لفهم التاريخ القومي الإسبانيّ. فهو يقول في مقالاته: "لا يشكّ أحد من الأذكياء في إمكانية تحسين تأريخ إسبانيا، أمّا أن يكون ذلك عن طريق دراسة اللغة العربية فلا يعتقد ذلك إلّا القليلون".(24)

ويقول أيضاً ما يلي:

"لن أقول أبداً إنّ كتب التأريخ للعرب تستحقّ تقديراً أكثر من تواريخ الإسبان؛ ولكنّي أقول إنّه يجب أن تقرأ بعناية كبيرة، ولا سيّما الكتب التي لها شهرة بين العرب. لقد كان دائماً الهدف الرئيسيّ لعلماء هذه الأمة أن يشتهروا بالبلاغة والشعر والتأريخ. ولقد وجدت في الكتب التي قرأتها لأبي الفرج [ابن العبريّ]، [وجرجس] الماكين، وأوتيخيوس، وأبي الفداء وبهاء الدين [ابن شدّاد] لغة نقية وأسلوباً رفيعاً وسرداً بسيطاً. إنّهم يذكرون الوقائع كما هي في ذاتها، ولا يبقون صامتين عن تلك الأشياء التي تبدو

(22) نفسه، 206، أيّ أخبار ملوك الأندلس لأحمد الرازي ومروج الذهب للمسعوديّ.
(23) نفسه، 232.
(24) انظر باتريسيو دي لا تورّي، «مقالات"، 15.

حقيرة، ما دامت لها علاقة بأشياء أخرى أعظم".(25)

وعلى الرغم من المشكلات المذكورة، فقد تمكّن باتريثيو دي لا تورّي من الحصول على 21 مؤلفاً مخطوطاً، أورد أسماء مؤلفيها في رسالة يوليو/تموز 1800، الموجهة إلى الوزير أوركيخو: 1) "التأريخ": الكنتار (؟)، وابن قردبوس، وابن قتيبة، والشاطبيّ الأندلسيّ، وأبو الحسن المسعوديّ، والقلقشنديّ، وابن بطّوطة، والقيسيّ الإشبيليّ؛ 2) "الأدب": ابن الخطيب؛ 3) "الطبيعيّات»: ابن البيطار، المختار ابن بطلان، كمال الدين الدميريّ؛ 4) "الطب والبيطرة": ابن البطر، أبو الحسن علي بن علي الحسن، عبد الرحمن بن هذيل الفزاري؛ 5) "علم اللغة": محمد بن إبراهيم أبو القاسم؛ 6) "أخلاق": محمّد بن عبد القادر الفاسيّ، مصنّف مجهول الصاحب؛ 7) "الفقه": ابن مؤمن بن عليّ؛ 8) "الشعر": أبو محمد الشريف الرنديّ؛ 9) "الطبّاخة»: ابن رزين التجيبيّ.(26)

لم يقتصر اهتمام باتريثيو دي لا تورّي على اقتناء مؤلّفات جديدة فحسب، بل امتدّ اهتمامه أيضاً إلى الحفاظ على تلك المحفوظة في دير الإسكوريال، والتي كانت مهملة بل ومهدّدة بالزوال، كما ندّد بذلك في رسالة مؤرخة في أكتوبر/تشرين الأول 1802، موجهّة إلى الوزير بدرو ثيبالّوس:

"كثير من المخطوطات العربية المفيدة جداً في سان لورنزو معرضة لهذا: فهناك الكثير منها قد أكلها الغبار والعثة، وأخرى تآكلت بسبب الأحبار، وهي قريبة جداً من الخراب تماماً، وإذا لم يتمّ تداركها فإنّنا لا محالة سنشعر بعد سنوات بفقدان هذه المخطوطات الرائعة. وكاسيري نفسه يتحدّث عن هذا الأمر في كلّ مناسبة في فهرسته، ويتحسّر بحقّ على هذا الضياع والخراب الذي يهدّد الأدب العربيّ. وقد رأيت هذه المخطوطات مراراً كثيرة مع الأسف الشديد، ولكن دون أن أجد لها علاجاً. ولذلك فمن الضروريّ،

(25) نفسه، 27-26.

(26) انظر خوستيل كالابوزو، « باتريسيو دي لا تورّي الطليطلي"، 225-224.

إذا كان لا بدّ من الحفاظ عليها، أن ننسخ الكثير منها، أو على الأقلّ تلك التي هي أكثر إثارة وفائدة".(27)

كذلك، لم يكن في مكتبة الدير أمناء مكتبات وباحثون من طراز ميغيل كاسيري الذي توفي عام 1791. ولعدم وجود خبراء في علم المخطوطات في إسبانيا، طلب باتريثيو دي لا تورّي الإذن باستقدام خبير في علم المخطوطات إلى إسبانيا كان قد التقى به في طنجة: "هذا الرجل لطيف الخصال، متعلّم في لغته، له معرفة متوسّطة بالأدب العربيّ وبما هو معروف هنا، ولكنّه متقدّم جداً فيما نحتاج إليه من أجله، أيّ أنّه ذو خلق جميل ومعرفة جيّدة بعلم الحروف العربية، وهو أيضاً معتدل جداً وحسن السيرة والأخلاق".(28) فتمّ قبول الاقتراح.(29)

الاستنتاجات

كان باتريثيو دي لا تورّي واحداً من مجموعة من العلماء ورثة عصر التنوير الذين شجّعوا دراسة اللغة العربيّة اتباعاً للطريق الذي فتحه ميغيل كاسيري في دير الإسكوريال. ولا يمكن إنكار أهميّة دوره في الدراسة المعجميّة وحمايته إرث مكتبة الإسكوريال. كما أنّ مؤلّفاته تشهد على خطاب يتمّ فيه تفسير الماضي العربي الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية من منظور قوميّ وطنيّ، حيث يتمّ التعرّف على اللهجة الأندلسية الأكثر نقاءً، وتحتفي بإنجازات الحضارة الأندلسية كأنّها إنجازات خاصة بأمّته.

(27) نفسه 232، مع تفسير خوستيل كالابوزو، ص. 69-68.

(28) نفسه، 234.

(29) نفسه، 347، مع تفسير خوستيل كالابوزو، ص. 69-68.

المراجع

القلعاويّ، بدرو دي، وباتريسيو دي لا تورّي، "معجم الإسبانية العربية المجمع والمُعَلّق عليه بالأحرف واللغة الإسبانية بواسطة الأب بدرو القلعاويّ من رتبة سان جيرونيمو"، تحرير فرانثيسكو موسكوسو غارثيا (قرطبة وقادس: جامعة قرطبة وجامعة قادس، 2018).

دي لا تورّي، باتريسيو، "مقالات حول النحو والشّعر عند العرب التي تقدّم لامتحان الجمهور، الأب باتريسيو دي لا تورّي" (مدريد: مطبعة دون أنطونيو دي سانشا، 1787).

خوستيل كالابوزو، براوليو، "نحو اللغة العربيّة الفصحى ونسبته غير المبررة إلى باتريسيو دي لا تورّي"، مجلّة شرق الأندلس 1 (1984): 35-46.

باتريسيو دي لا تورّي الطليطليّ: راهب إسكورياليّ، مختصّ في اللغة العربيّة ونائب قنصل في طنجة»" (إلسكوريال: إصدارات إسكورياليّة، 1991).

مونرو، جيمس ت.، «الإسلام والعرب في الدراسات الإسبانية (من القرن السادس عشر حتى الحاضر)» (لايدن: بريل، 1970).

موسكوسو غارثيا، فرانثيسكو، «الأمثال التي تمّ جمعها في المعجم للأب باتريسيو دي لا تورّي: جسر الوصل بين الأندلس والمغرب»، نشرة الأدب الشفهيّ 10 (2020): 171-217.

الدكتور إغناثيو فيراندو (إسبانيا)

الدكتور إغناثيو فيراندو، مستعرب وباحث ومترجم من إسبانيا، من مواليد مدينة سرقسطة عام 1966، يقيم في مدينة قادس، جنوب إسبانيا. أستاذ كرسي اللغة العربية والأدب العربي والترجمة في جامعة قادس، منذ

العام 2017. متخصص في مجالات اللغة العربية، الدراسات المعجمية، اللغة العربية في الأندلس، الأدب الأندلسي، تأثير اللغة العربية على اللغات واللهجات الإسبانية، الترجمة المتبادلة بين اللغتين الإسبانية والعربية. أستاذ زائر في جامعة غرناطة، وجامعة عبد الملك السعدي في طنجة. عضو في هيئة تحرير موسوعة "مكتبة الأندلس" التي تضم ثمانية مجلدات تجمع أخبار المؤلفين الأندلسيين في حقول الأدب واللغة والتاريخ والفكر والفقه وغيرها. عضو في هيئة تحريرمجلة "الأندلس مغرب" في جامعة قادس. عضو في هيئة التحرير لمجلة "القنطرة" التي ينشرها المعهد العالي للبحوث العلمية في مدريد.

صدرت له كتب وترجمات عدة، من بينها: ترجمة رواية "عزازيل" للكاتب المصري يوسف زيدان، ترجمة رواية "فتنة الرؤوس والنسوة" للكاتب المغربي بنسالم حميش، ترجمة رواية "الساحة الشرفية" للكاتب المغربي عبد القادر شاوي، "قاموس الجيب عربي – إسباني، إسباني – عربي"، "القاموس الموسع عربي – إسباني" بمشاركة الأستاذ فيديريكو كورينتي، كتاب باللغة الإسبانية عنوانه "مدخل إلى تاريخ اللغة العربية"، ترجمة "المقامات اللزومية للسرقسطي" إلى اللغة الإسبانية، دراسة لغوية حول نصوص عربية أندلسية مكتوبة في طليطلة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد (أطروحة الدكتوراه، باللغة الإسبانية).

نشر مقالات وبحوثاً باللغات الإسبانية والعربية والإنجليزية، من بينها: "الفتح ابن خاقان ومقدمة كتابه قلائد العقيان ومحاسن الأعيان" (بالإسبانية)، "تنوع أوزان جمع التكسير العربي، من كتاب سيبويه إلى العربية المعاصرة، حالة وزن فعَل" (بالإسبانية)، "عنصر الإبداع في عروض المقامات اللزومية للسرقسطي" (بالإسبانية)، "التداخل بين اللغتين العربية والإسبانية" (بالعربية)، "الرابط الاسمي في العربية الأندلسية مع إشارة خاصة إلى شعر ابن قزمان (القرن الثاني عشر)" (بالإنجليزية).

الدكتور وليد صالح الخليفة (العراق/ إسبانيا)

الدكتور وليد صالح الخليفة، كاتب ومترجم وباحث من العراق وإسبانيا، مولود بالعراق. أستاذ للدراسات العربية الإسلامية بقسم الدراسات العربية والإسلامية في جامعة أوتونوما في مدريد، وكان رئيسا لهذا القسم في السنوات من 2002 حتى 2005. يحمل درجة الدكتوراه من جامعة أوتونوما بمدريد سنة 1990. درس اللغة العربية وآدابها في كلية التربية

بجامعة بغداد سنة 1972. غادر العراق سنة 1978 واستقر في المغرب حيث مارس التعليم في المدارس العليا للمعلمين بأكثر من مدينة. يقيم في إسبانيا منذ سنة 1984، حيث أنجز دراسته العليا ونال شهادة الدكتوراه. ودرس الأدب الإسباني من جامعة بلنسية بإسبانيا. مارس التعليم في العديد من مراكز التعليم والجامعات الإسبانية في مدريد وبلنسية.

له كثير من المؤلفات والتراجم، فمن مؤلفاته: "اللغة العربية.. قواعد وتمارين للمستوى المتوسط" (باللغتين الإسبانية والعربية)، "عبد الوهاب البياتي.. من باب الشيخ إلى قرطبة"، "قرن ونصف من المسرح العربي" (باللغة الإسبانية)، "قصص من التراث العربي.. مختارات لتعليم العربية للإسبان"، "الحب والجنس والزواج في الإسلام" (باللغة الاسبانية)، "نوادر جحا" (باللغتين العربية والإسبانية)، "الفكر الحر والإسلام" (باللغة الاسبانية)، "الإسلام السياسي.. الأصول والتطور" (باللغة الإسبانية)، "النسوية والإسلام" (باللغة الإسبانية).

قام بترجمة بعض الأعمال الأدبية من الإسبانية إلى العربية، من بينها: "اثنتا عشرة قصة نادرة"، و"عن الحب وشياطين أخرى" لغارثيا ماركيز، "رجل وحيد.. قصص إسبانية قصيرة" لمجموعة من الكتّاب الإسبان.

ترجم أعمالاً من العربية إلى الإسبانية، منها: مسرحية "رأس المملوك جابر" لسعد الله ونّوس، مسرحية "المهرج" لمحمد الماغوط، "موشحات الأعمى التطيلي"، ديوان "البحر بعيد أسمعه يتنهد" لعبد الوهاب البياتي، "ثورة في الجحيم" لجميل صدقي الزهاوي.

يكتب مقالات في صحف ومجلات عربية وإسبانية، ويشارك في برامج تلفزيونية وإذاعية إسبانية وعربية.

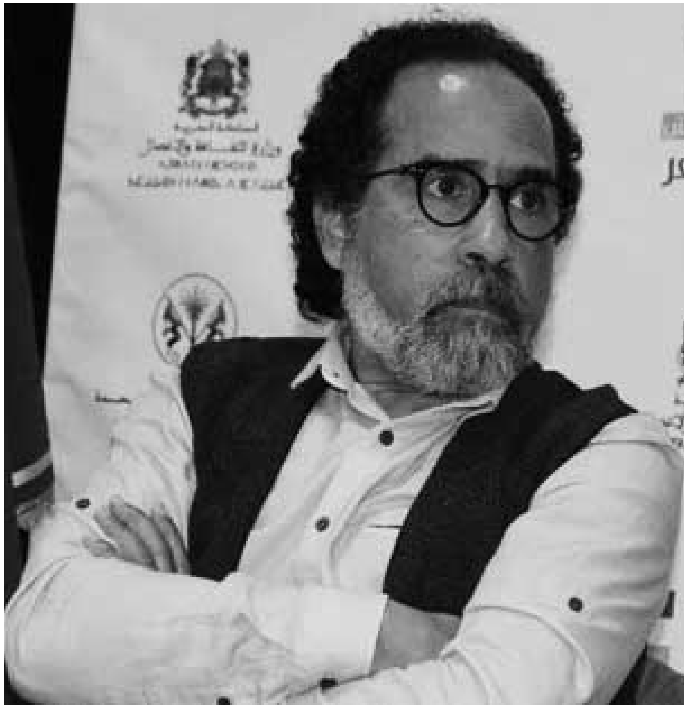

الدكتور صلاح بوسريف (المغرب)

الدكتور صلاح بوسريف، شاعر وناقد وباحث من المغرب، من مواليد مدينة الدار البيضاء، في العام 1958. درس التاريخ القديم بكلية الآداب، جامعة بغداد. يحمل درجة الدكتوراه عن أطروحته التي نُشِرت بعنوان "حداثة الكتابة في الشعر العربي المعاصر". رئيس سابق لفرع اتحاد كتّاب المغرب في الدار البيضاء. عضو مؤسس لبيت الشعر في المغرب. كان عضواً

في هيئة تحرير مجلة "الشعراء" الفلسطينية. عضو الرابطة الدولية لشعراء العالم. المدير المسؤول عن مجلة "الثقافة المغربية" التي تصدر عن وزارة الثقافة المغربية.

شارك في لقاءات ومهرجانات شعرية عربية ودولية، وترجمت بعض أعماله إلى الفرنسية والإسبانية والإنجليزية والكرواتية.

من أعماله الشِّعرية: "فاكهة الليل"، "على إثر سماء"، "شجر النوم"، "نتوءات زرقاء"، "حامل المرآة"، "شهوات العاشق"، "شرفة يتيمة.. خبز العائلة يليه حَجَر الفلاسفة"، "إبر عمياء لا تخيط إلا الريح يليه معراج الشراب"، "رفات جلجامش"، "كوميديا العدم.. في الذبول المريب من الحلم"، "كتاب الموتى"، "كتاب الليل والنهار"، "كتاب البداء.. ما يشبه الظلمة بعد أن كان النور"، "أرض مظلمة خضراء"، و"الأعمال الشعرية" في أربعة أجزاء.

من أعماله النظرية: "رهانات الحداثة، أفق لأشكال محتملة"، "بين الحداثة والتقليد"، "المغايرة والاختلاف في الشِّعر المغربي المعاصر"، "مضايق الكتابة، مقدمات لما بعد القصيدة"، "الكتابي والشفاهي في الشعر العربي المعاصر"، "السهم والوتر، بيانات في حداثة الكتابة"، "شعرية الصمت"، "الفكر النائم، في نقد ومساءلة الشعرية العربية المعاصرة"، "تحرير الخيال.. شعرية الكثافة والغموض"، "القفز في الفراغ.. بيانات في نقد الشعريات السلفية في الثقافة العربية"، "مناكفة الأسلاف.. السنن والبدع"، "مراقبة الصيرورة.. انفصال مستمر وقطعة بلا انقطاع"، و"خارج النسق داخل السياق".

وله إصدارات أخرى، منها "المثقف المغربي بين رهان المعرفة ورهانات السلطة"، و"اللسان الأسير".

الدكتور إغناثيو غوتيريث دي تيران (إسبانيا)

الدكتور إغناثيو غوتيريث دي تيران غوميث بينيتا، مستعرب وكاتب وباحث ومترجم من إسبانيا، مولود في مدريد، عام 1967. أستاذ أساسي للغة العربية وآدابها والتاريخ المعاصر في العالم الإسلامي، في قسم الدراسات العربية والإسلامية في جامعة أوتونوما بمدريد.

رئيس قسم الدراسات العربية والإسلامية في جامعة أوتونوما في

مدريد، منذ العام 2020، ومنسق الدراسات العليا في الدراسات العربية والإسلامية المعاصرة في الجامعة نفسها، بالتعاون مع معهد الدراسات العلمية الحكومية بمدريد. رئيس جمعية أساتذة اللغة العربية في إسبانيا التي تم إنشاؤها في العام 2022.

يتولى الإشراف على الفرقة المسرحية "عرب - أوام" باللغة العربية منذ العام 2002. وقد شاركت الفرقة في عدد من المهرجانات، وقدّمت مسرحيات لكتّاب عرب من أمثال توفيق الحكيم وسعد الله ونوس ومحمد الماغوط.

شارك في مؤتمرات ومنتديات وندوات في الإمارات ومصر واليمن والمغرب وقطر. وشارك في تقديم محاضرات في عدد من معارض الكتاب العربية.

صدرت له كتب عدة باللغتين الإسبانية والعربية عن الروابط الثقافية والاجتماعية بين الإسبان والعرب، وعن الرواية العربية المعاصرة وقضايا سياسية ذات الصلة بالوطن العربي. من بين مؤلفاته: "المعلّقات لجيل الألفية، دراسة ونصوص"، 2022، بالاشتراك مع مترجمين إسبانيين، "اللغة العربية في إسبانيا" (2015) بالاشتراك مع مؤلفين آخرين.

ونقل إلى اللغة الإسبانية أعمالاً سردية لأدباء عرب معاصرين مثل نجيب محفوظ، غسان كنفاني، إبراهيم الكوني، إدوارد الخراط، مريد البرغوثي، عالية ممدوح، بهاء طاهر، ومازن معروف. ومن ترجماته الشعرية: دواوين لكل من محمود درويش، سميح القاسم، محمد الماغوط، نوري الجراح وغيرهم.

كما ترجم من اللغة الإسبانية إلى العربية أعمالاً أدبية عدة، منها: "رحلة علي باي إلى المغرب" (2005). وشارك في كتاب "تاريخ الأدب الإسباني المعاصر" (2006).

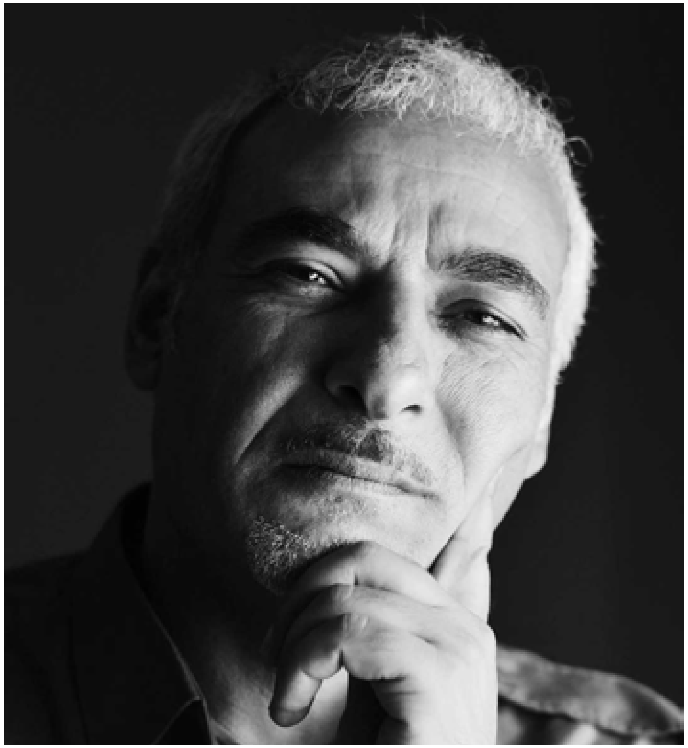

الدكتور محسن الرملي (العراق/ إسبانيا)

الدكتور محسن الرملي، كاتب وأكاديمي ومترجم عراقي - إسباني، ولد عام 1967، في قرية سُديرة الواقعة في شمال العراق، ويعيش في إسبانيا منذ العام 1995. حاصل على الدكتوراه بامتياز في الفلسفة والآداب من جامعة مدريد، مع درجة الشرف. يكتب باللغتين العربية والإسبانية. يعمل حالياً أستاذاً في جامعة سانت لويس الأميركية في مدريد.

تَرجم أعمالاً أدبية عدة من الإسبانية إلى العربية، منها: مجموعة "المسرحيات القصيرة" لميغيل دي ثربانتس، "مختارات من الشعر الإسباني في العصر الذهبي"، "مختارات من القصة الإسبانية في العصر الذهبي".

ومن العربية إلى الإسبانية له عدد من الترجمات، منها: "مقاعد" قصائد لإبراهيم نصر الله، "أسلحة تعبير شامل" مختارات شعرية عراقية، "حياة مستعملة" قصائد لصلاح حسن، و"العتب المتبقي" قصائد لنجوم الغانم. وله ما يزيد على 20 إصداراً تنوعت بين القصة والشعر والمسرحية والترجمات والرواية، من بينها رواياته "الفتيت المبعثر" التي فازت ترجمتها الإنجليزية بجائزة أركنساس 2002، و"تمر الأصابع" و"حدائق الرئيس" و"بنت دجلة" التي ترشحت ضمن القائمة الطويلة للجائزة العالمية للرواية العربية "بوكر العربية" في الأعوام 2010 و2013 و2021، ونالت الترجمة الإنجليزية لروايته "حدائق الرئيس" جائزة القلم الدولي، في العام 2016 ، وجائزة سيف غباش "بانيبال" 2018، ورُشّحت رواياته "أبناء وأحذية" و"ذئبة الحُبّ والكُتب" لجائزة الشيخ زايد للكتاب، في العامين 2019 و2015.

تُرجمت أغلب أعماله إلى لغات عدة، وشارك في العديد من المهرجانات والمؤتمرات الدولية ومعارض الكُتب. كما شارك في لجان تحكيم وإدارة ورش للكتابة الإبداعية في إسبانيا والمكسيك والكويت والإمارات والعراق والسعودية وغيرها.

شريك في تأسيس وإدارة دار نشر ومجلة "ألواح" الثقافية الفكرية في إسبانيا 1997. عضو في هيئة تحرير مجلة "آركيترابا" الكولومبية المتخصصة بالشعر. عضو جمعية الكتّاب والمترجمين المحترفين الإسبان.

هدى الهرمي (تونس)

هدى الهرمي، كاتبة وقاصة وباحثة من تونس، مختصة بالدراسات الأدبية، في حقول الشعر والسرد القصصي والروائي.

عضوة في رابطة الكاتبات التونسيات، وفي حركة شعراء العالم.

بدأت مسيرتها الأدبية بكتابة الشعر، ونشرت نصوصاً ومقالات في الفكر

والأدب في صحف ومجلات عربية في تونس وخارجها.

شاركت في مهرجانات وقراءات شعرية وملتقيات ثقافية، أهمّها مهرجان القيروان للشعر العربي في دورته الرابعة، وأيام قرطاج الشعرية في دورتيها الأولى والثانية.

نشرت دراسات نقدية لأعمال روائية وشعرية لعدد من الأدباء العرب.

ساهمت في مجموعة من الكتب المشتركة مع عدد من الكُتّاب العرب، من بينها: "أنطولوجيا في القصة القصيرة.. وباء كورونا"، "شهود من أهلها.. أحاديث الجائحة"، أنطولوجيا "قصص عربية معاصرة"، الجزء الثالث، باللغة الإسبانية، أنطولوجيا "شموع تونسية".

صدرت لها مجموعة شعرية بعنوان "ظلال الأجنحة" عن دار زينب للنشر والتوزيع في تونس 2018، ومجموعة قصصية بعنوان "عميان المنطقة المحظورة" عن دار الدراويش للنشر والترجمة في بلغاريا 2022.

تُرجمت لها نصوص أدبية في الشعر والقصة القصيرة إلى اللغات الفرنسية والكردية والإسبانية.

نشرات مقالات عدة في مجالات الثقافة وقضايا المرأة، من بينها: "المرأة العربية بين الهاجس والتحدّي"، "ناقدة السرد".

الدكتور إغناثيو سانشيز (إسبانيا)

الدكتور خوسيه إغناثيو سانشيز سانشيز، مستعرب وكاتب وباحث ومترجم من إسبانيا. يعمل حالياً باحثاً في مدرسة طليطلة للمترجمين التابعة لجامعة كاستيا لا مانشا. عمل باحثاً في التاريخ القديم في جامعة ووريك، وفي التاريخ الوسيط بجامعة هومبولت، ومختصاً في المخطوطات، في مكتبة جامعة كامبريدج. كما عمل محرراً في قسم تأريخ العلوم في دائرة المعارف

الإسلامية، ومحرراً بسلسلة "الأندلس.. الماضي والحاضر"، وهو مؤسس ورئيس تحرير دراسات الأوقاف.

صدرت له كتب عدة، من بينها: "رسالة في الجغرافيا.. النسخة النقدية العربية والترجمة الإنجليزية للرسالة الرابعة من رسائل إخوان الصفاء"، "تأريخ أدبي للطب.. النسخة النقدية العربية والترجمة الإنجليزية لعيون الأنباء في طبقات الأطبّاء لابن أبي أصيبعة" في خمسة مجلدات، مع إيميلي سافاج سميث وغيرها، فضلاً عن فصول في كتب جماعية، منها: "الأمعاء المقارنة.. استكشاف داخل الجسم عبر الزمن والمكان"، "التحكم في الكتب، التحكم في النصوص.. الأوقاف المنقولة بين الوَرْعة وقلق المؤلف"، "الأدوية المفردة والجداول المعقدة.. النص المحاذي في الجوامع الجدولية لكتاب الأدوية المفردة لجالينوس"، "الخمر.. الفقه والسخرية، كتاب الشارب والمشروب للجاحظ"، "لماذا نترجم؟ المصادر العربية حول الترجمة"، "أصول الشافعي وتفسير القرآن في كتاب العثمانية للجاحظ".

وله مقالات في موضوعات عدة، منها: "الرعاية الطبية والتقوى في دمشق الأيوبية"، "صدف 'الجنين في الرحم'.. علم الأجنّة والزهد في كليلة ودمنة، السوترا البوذية، والخطب الإسلامية"، "عندما فقدت الحيوانات صوتها.. الأمثال، قصص الأنبياء وسخرية درامية في قضية الحيوانات ضد الإنسان لإخوان الصفاء"، فضلاً عن مقالات في دائرة المعارف الإسلامية "الجزء الثالث": "أبو حليقة"، "ابن عبد ربه، أبو عثمان"، "ابن جناح"، "ابن حسان، أبو الفضل"، و"ابن حسان، أبو جعفر".

مجلة "الناشر الأسبوعي"

الندوة الدولية الثالثة 2024

"هجرة اللغات.. قراءة في نموذج العلاقة بين العربية والإسبانية"

13 – 14 نوفمبر/ تشرين الثاني 2024

الدورة الـ 43 من معرض الشارقة الدولي للكتاب

هيئة الشارقة للكتاب

• الإشراف العام: منصور الحساني

• متابعة أعمال الندوة وطباعة الكتاب: نور نصرة

• تصميم الكتاب: محمد داود